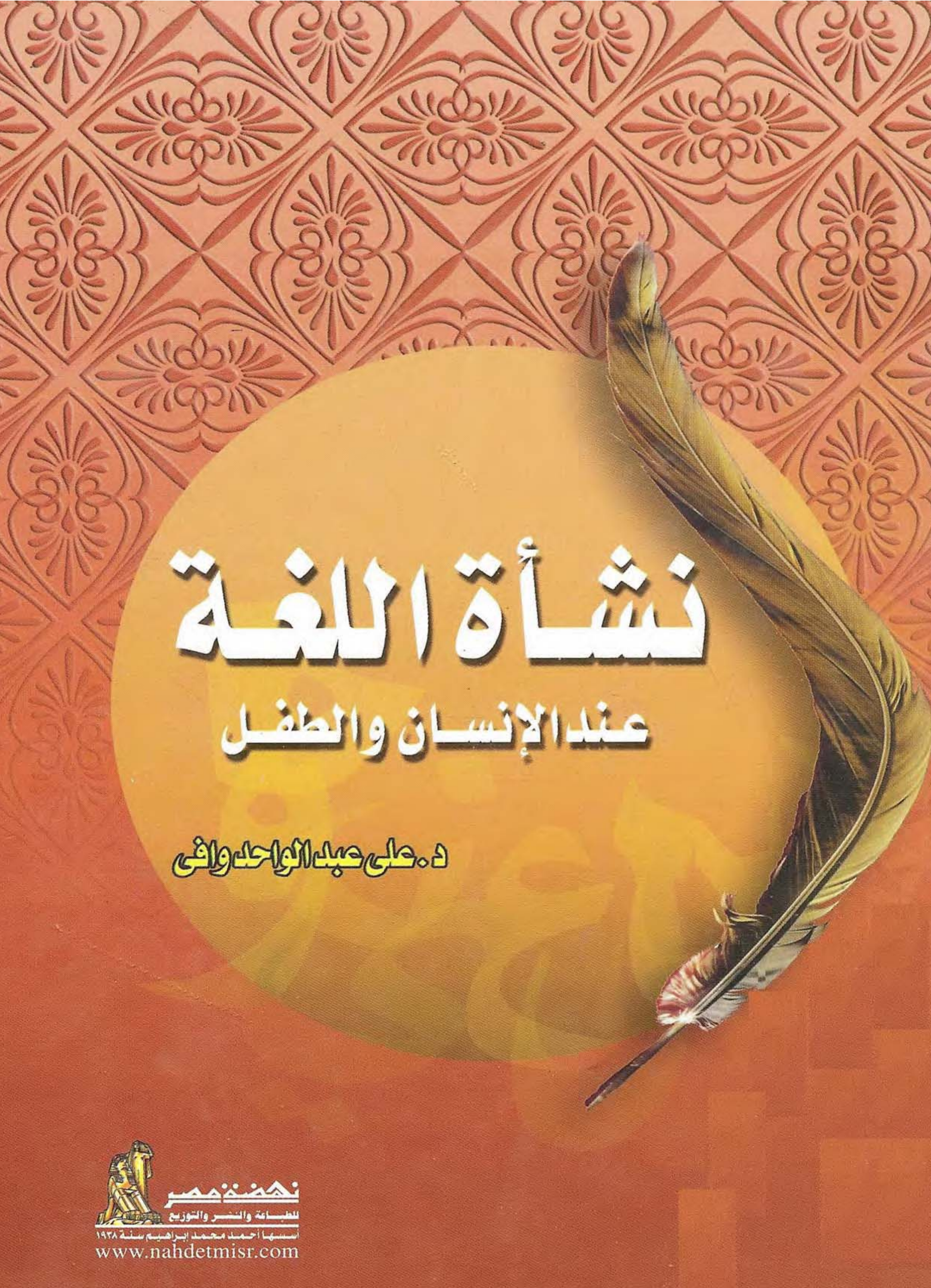

نشأة اللغة
عند الإنسان والطفل
د. على عبد الواحد وافى
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
www.nahdetmisr.com

نشأة اللغة

عند الإنسان والطفل

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس

عضو "المجمع الدولي لعلم الاجتماع"

عميد كلية الآداب بجامعة أم درمان

عميد كلية التربية بجامعة الأزهر

ووكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقاً



www.nahdetmisr.com

بسم الله الرحمن الرحيم



اسم الكتاب:	نشأة اللغة «عند الإنسان والطفل» .
اسم المؤلف:	د. على عبد الواحد وافى .
إشراف عام:	داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر:	يونيو ٢٠٠٣م
رقم الإيداع:	٩٩٦٥ /٢٠٠٣
الترقيم الدولى:	ISBN 977-14-2296-0
الناشر:	**نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .**
المركز الرئيسى:	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة مدينة السادس من أكتوبر . **ت:** ٨٣٣٠٢٨٧ - ٨٣٣٠٢٨٩ **فاكس:** ٠٢/٨٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع:	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة . **ت:** ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ **فاكس:** ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ **ص.ب:** ٩٦ الفجالة - القاهرة.
الإدارة العامة:	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة . **Publishing@nahdetmisr.com** **ت:** ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ **فاكس:** ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ **ص.ب:** ٢١ إمبابة .
موقع الشركة على الإنترنت	**كافة إصدارات شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان التالى** www.nahdetmisr.com **الرقم المجانى** 07775666

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للغة نشأتان : نشأة حينما أخذ الإنسان يلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع وكلمات متميزة للتعبير عما يجول بخاطره من معان وما يحسه من مدركات ؛ ونشأة حينما يشرع الطفل يقلد أبويه والمحيطين به فيما يلفظونه من مفردات وعبارات فتنتقل إليه لغتهم عن هذا الطريق.

فعلى أية صورة حدثت النشأة الأولى ؟ وكيف تم النشأة الأخرى ؟.

هذان هما السؤالان اللذان سنجيب عليهما فى هذا الكتاب . وسنستعين فى الإجابة عليهما بما هدتنا إليه دراستنا وتجاربنا الخاصة وبأهم ما قاله بصددهما أئمة الباحثين من علماء الغرب والشرق ، مع مناقشة آرائهم وبيان ما ينطوى عليه كل رأى منها من مطابقة للواقع وانحراف عن حقائق الأمور .

فكتابنا ينحصر فى بابين : أولهما فى نشأة اللغة عند الإنسان ؛ والآخر فى نشأة اللغة عند الطفل .

وسنمهد للموضوع الأساسى فى الباب الأول بفصلين نشرح فى احدهما أنواع التعبير الإنسانى وفى الآخر اختصاص الإنسان

باللغة ومراكزها . ثم نقف الفصلين الثالث والرابع على الموضوع الأساسى نفسه فتدرس فيهما نشأة اللغة ونشأة مراكزها عند الإنسان. ونختم هذا الباب بخمسة فصول أخرى نعالج فيها أموراً هامة مكملة لبحوثه : فنعرض فى الفصل الخامس للمراحل الأولى التى اجتازتها لغة الإنسان عقب نشأتها وما انتابها من تطور فى هذه المراحل ؛ وفى الفصل السادس للفصائل التى انتهى إليها الآن تطور اللغات الإنسانية وتشعبها ؛ وفى السابع والثامن لوجوه الخلاف والمشابهة بين هذه الفصائل ؛ وفى التاسع للعوامل التى أدت إلى تشعبها على هذا الوجه .

وأما الباب الثانى فسنمهد كذلك لموضوعه الأساسى بفصل فى أنواع الأصوات والتعبير فى الطفولة ؛ ثم نقف الفصول الأربعة التالية على الموضوع الأساسى نفسه : فندرس فى الفصل الثانى المراحل التى يجتازها الطفل فى أصواته وتعبيراته ونشأة اللغة لديه ؛ ونعالج فى الفصول الثالث والرابع والخامس العوامل التى تتوقف عليها نشأة اللغة عند الطفل والدعائم التى تعتمد عليها هذه النشأة ؛ ثم نربط فى الفصل السادس بين موضوع هذا الباب وموضوع الباب السابق فنبين وجوه الشبه بين نشأة اللغة عند الطفل ونشأتها عند الإنسان. ونختم هذا الباب بفصل تطبيقى نشرح فيه طرفاً من وجوه الانتفاع بدراسة اللغة عند الطفل فى شئون التربية والتعليم .

والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل ، ويهيىء لنا من أمرنا رشدا .

دكتور : على عبد الواحد وافى

الباب الأول

نشأة اللغة عند الإنسان



الفصل الأول

أنواع التعبير الإنسانى

للتعبير الإنسانى طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين رئيسين :

(القسم الأول) التعبير الطبيعى عن الانفعالات . — ويشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التى تصحب مختلف الانفعالات السارة والأليمة ، كالصراخ والضحك والبكاء وتفتح الأسارير وانقباضها واتساع الحدقة وإغماض العينين واحمرار الوجه واصفراره ووقوف شعر الرأس وارتعاد الجسم . . . وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التى تبدو بشكل غير إرادى فى حالات الفرح والحزن والألم والخوف والخجل والاشمئزاز . . . وما إليها ، والتى تعبر عن قيام حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه .

وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التى ندركها عن طريقها إلى نوعين :

١ — تعبيرات بصرية ، أى تصل عن طريق حاسة النظر ، كالحمرة والصفرة والرعشة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة وإغماض العينين ووقوف شعر الرأس والعدو . . . وما إلى ذلك من الظواهر الجسمية التى تصحب مختلف الانفعالات .

٢ ـ تعبيرات سمعية ، أى تصل عن طريق حاسة السمع ، كالضحك والبكاء والصراخ . . وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التى تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور . . . وهلم جرا . ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (حروف مد) مختلطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة) .

وقد تكفلت بحوث علم النفس بدراسة هذا القسم بنوعيه ، وشرح مظاهره ، ومنشأ كل منها ، والقوانين التى تشرف عليه ويخضع لها فى مختلف نواحيه ، ووسائل إدراكه ، وفهم ما يعبر عنه . . . وهلم جرا[١] .

(القسم الثانى) التعبير الوضعى الإرادى . — ويشمل جميع الوسائل الإرادية التى يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعانى التى يود وقوف غيره عليها .

وتنقسم هذه الوسائل من حيث الحاسة التى ندركها عن طريقها إلى نوعين مشبهين لنوعى القسم الأول : أحدهما التعبيرات الإرادية البصرية ؛ والآخر التعبيرات الإرادية السمعية .

---

(١) انظر مؤلفات علم النفس ، وبخاصة البحث الجليل الذى كتبه أستاذنا العلامة دوما Dumas فى الجزء الأول من كتاب « علم النفس» Traité de Psychologie الطبعة الأولى صفحات ٦٠٦ — ٧٣٢ .

١ — أما التعبيرات الإرادية البصرية فهى التى تصل عن طريق حاسة النظر ، وتشمل جميع الإشارات الحسية التى تستخدم بقصد الدلالة وهى على ضربين :

(أحدهما) إشارات مساعدة ونائبة ، أى تساعد لغة الكلام وتنوب عنها فى حالات خاصة أو لضرورة ما . ومن هذه الطائفة الإشارات البحرية وهى التى يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى [١] ؛ وإشارات الصيد وهى التى يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد ؛ والحركات اليدوية والجسمية التى يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطرهم ؛ والإشارات التى يلجأ إليها الفرد أحياناً للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لغته ؛ والتى جرت العادة فى بعض الأمم البدائية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض [٢] ؛ والإشارات التى تستخدم فى بعض الشعوب فى حالات

---

(١) هذه الاشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس فى مدارس البحرية .

(٢) عثر علماء الا تنوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا ، وعند بعض العشائر الأفريقية . وقد روى الأستاذ كوهل kohl أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته ، يختلف عنه فى لغته ، فانهما يلجآن فى تعبيرهما إلى لغة الا شارات التى تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر فى هذه اللغة أيما مهارة . فنى امكان المتخاطبين أن يظلا يوما كاملا يتحدثان عن طريق =

حالات الصيام الدينى عن الكلام(١) ؛ والحركات التى يستعين بها فى أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ما ينقص

= الا شارات باليد والأصابع والرجلين، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما يود قصه عليه .

انظر ليفى برول : « الوظائف العقلية فى الأمم البدائية » ١٧٨ وتوابعها
Levy-Bruhl : Fonctions Mentales . . . , etc.

(١) يوجد الصيام الدينى عن الكلام عند كثير من الأمم البدائية وبخاصة عند سكان أستراليا وأمريكا . فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين فى كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ، تبلغ أحيانا عاما كاملا ، صائمة عن الكلام . — ويظهر أن شيئا من هذا كان موجودا فى ديانة اليهود ، بدليل قوله تعالى لمريم على لسان وليدها : « فاما ترين من البشر أحدا ، فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا . . . فأشارت اليه . . . . » .

وقد عرف العرب أنفسهم فى الجاهلية هذا النوع من الصيام ومارسوه . وكان يطلق عليه عندهم اسم « الضرس » (بفتح الضاد) وتقول المعجمات العربية فى شرح هذه الكلمة انه صمت يوم إلى الليل . وكانت عشائر « الحمس » (بضم الحاء وسكون الميم من أشد عشائر العرب محافظة على هذا النوع من الصوم . وكلمة « الحمس » كانت تطلق على قريش وبعض بطون من كنانة وجديلة ومن سار على نحلتهم فى الجاهلية . وسموا « الحمس » لشدة تحمسهم لعقائدهم وتزمتهم فى دينهم . وقد أزال أبو بكر الصديق وهو خليفة ما بقى من أثر لهذا النوع الغريب من الصوم . فقد روى أنه دخل مرة على امرأة من الحمس اسمها « زينب » فوجدها لا تتكلم ، فقال ما لها لا تتكلم ؟ ! فقالوا إنها حجت مصمتة ، أى حجت صائمة عن الكلام ولم تنته بعد مدة صيامها . فقال لها تكلمى ، فإن هذا لا يجوز ، هذا من عمل الجاهلية .

تعبيرهم وما يعوزه من دلالة[١] ، والحاركات التى تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعانى أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح ، والتى نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفى والاستحسان وما إلى ذلك ، كالإيماء بالرأس للتعبير عن القبول ، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض ، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت . . وهلم جرا .

(والآخر) إشارات أصيلة عامة ، وهى التى يتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها فى جميع الشئون والظروف . — وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملا فى بعض العشائر . فقد عثر فى الأمم البدائية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم فى تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية . ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا وبعض العشائر بأفريقيا الوسطى . ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم « لغة الإشارات » أو « الإشارات التحليلية » Gestes Analytiques [٢] . وقد عنى بدراسته عدد كبير

---

(١) لوحظ هذا فى كثير من الأمم البدائية ، فقد روى عن البوشيمان Boschimans (عشائر بدائية تسكن أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى اشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصة وتحدد مدلولاته . — انظر ريبو « تطور المعانى الكلية » ص ٧٨ وتوابعها
Ribot : Evolution des Idées Générales

(٢) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو Ribot (انظر كتابه : « تطور المعانى الكلية ») .

من علماء الإتنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولونل مولرى Mallery [١] وتيلور Tylor [٢] ورومان Romanes [٣] وليبوك Lubock [٤] وسبنسر وجيلن Spencer and Gillen [٥] وليفى برول Levy Bruhl [٦] وريبو Ribot [٧] والدكتور فيشر الألمانى Fischer [٨] وروث Roth [٩].

---

(١) أنظر بحثه بالانجليزية . « لغة الاشارات بين هنود أمريكا الشمالية » وقد ظهر فى تقرير مكتب الاتنولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١ .
Sign-Language among the North American Indians.

(٢) انظر كتابه بالانجليزية : « تاريخ النوع الانسانى فى عصوره الأولى »
Early History of Mankind

(٣) انظر كتابه بالانجليزية : « التطور العقلى فى الفصيلة الانسانية »
Mental Evolution In Mankind

(٤) انظر كتابه بالانجليزية : « أصول المدنية » .
The Origin of Civilization

(٥) انظر كتابيهما بالانجليزية : « العشائر الأصلية باستراليا الوسطى » و « العشائر الشمالية بأستراليا الوسطى » .

(٦) انظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم البدائية » صفحات ١٧٥ — ٣٠٤ .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية : « تطور المعانى الكلية » صفحات ٥٨ — ٦٤ .

(٨) عنى الدكتور فيشر فى بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر أفريقيا الوسطى ، وعند السكان الأصليين لأمريكا .

(٩) انظر كتابها بالانجليزية : « دراسات اثنولوجية للسكان الأصليين بالقسم الشمالى الغربى بكوينسلندا » .

وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول :

إذا التقيت بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون وواحد ممتط صهوة جواده ، فإنني أشير إلى شخصه بيدى للدلالة على كلمة « أنت » ، ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ، ثم أبسط أصابع يدى اليمنى وسبابة يدى اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ، ثم أكون صورة دائرة بإلصاق نهايتى السبابتين والإبهامين إحداهما بالأخرى وأمد يدى إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهى تسير للدلالة على « العربة » ، ثم أضع الكفين ممدودتين بجانبى الجبهة ممثلا قرن حيوان للدلالة على « الثور » ، ثم أمد ثلاثة أصابع من يدى اليسرى وأضع يدى اليمنى تحت شفتى السفلى وأنحدر بها إلى صدرى ممثلا اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ، ثم أمد مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبهتى بيدى من اليمين إلى الشمال ممثلا وجهاً شاحباً للدلالة على « ثلاثة أمريكيين » ، ثم أرفع إصبعاً واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطاها ممثلا الراكب للدلالة على « رجل واحد راكب حصاناً » . — وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء هذه الحركات لا يزيد

كثيراً عن الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر الأستاذ تيلور ، بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ؛ وأنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شىء بلغة دولية ؛ وأنه يمكن أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات ؛ وأنها فى جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم — البكم ، فقد جمع الكولونل مولرى بين رجل أصم — أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات فأخذ الأصم — الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده ، فلم يفتهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية .

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهذيب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت فى سبيل الارتقاء ، ولأصابها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقى العقلى ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء وما إلى ذلك .

غير أنه مهما ينلها من التهذيب فلن تخلو من مثالبها الذاتية . فهى تستأثر باليد ، فتحول دون القيام بأى عمل آخر فى أثناء التعبير .

ويتوقف إدراكها على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا فى الظلام ولا لغير البصير . وهى قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف المشاعر والوجدان . هذا إلى أنها عارية عن الدقة فى كثير من مظاهرها ، وأنها تقتضى إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود .

٢ — وأما التعبيرات الإرادية السمعية ، فهى التى تصل عن طريق حاسة السمع . وهى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات .

وهذا النوع هو الذى تنصرف إليه كلمة « اللغة » إذا أطلقت . وهو وحده الذى يهمنا فى بحثنا . وإنما ذكرنا الأنواع الأخرى لاستيفاء مظاهر التعبير من جهة ، ولأننا قد نحتاج إليها من جهة أخرى فى بيان نشأة هذا النوع ، أو فى ضرب الأمثال ، أو الموازنة ، أو مناقشة النظريات وتوضيحها . .

الفصل الثانى

اختصاص الإنسان باللغة ومراكزها

تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان فى القسم الأول من قسمى التعبير المذكورين فى الفصل السابق ، وهو التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، سواء فى ذلك التعبير الطبيعى البصرى والتعبير السمعى . فانفعالات الحيوان جسميها ونفسيها ، كالجوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب . . . وما إلى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة . وهذه الحركات بعضها بصرى ، أى يصل عن طريق حاسة النظر : كاتساع الحدقة وضيقها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الناب ، ووقوف الشعر ، وانتفاخ الجسم والأوداج ، والهرب ، والاختفاء ... وما إلى ذلك ؛ وبعضها سمعى ، أى يتمثل فى صوت يصل عن طريق الأذن : كرغاء الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس وقبعه [1] عند نفوره من شىء ، وحمحمته عند الجوع أو الاستئناس ، وشحيح البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتضوره وتلعلعه عند جوعه ، ونباح الكلب

---

(١) صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه عند نفوره من شىء .

وضغاؤه إذا جاع ووقوقته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القرد ، وصرصرة البازى ، وقعقة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمرى ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق الضفدع . . وهلم جرا [١] .

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان فى التعبير الإرادى البصرى ، وهو التعبير بالإشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التى تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والغنم والوعول وما إليها . فقد ثبت أن كثيراً من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحياناً بعض إشارات جسمية للتعبير بها بشكل مقصود عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم فى أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ، وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ، ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منهما نطحاً خفيفاً . ويستخدم الأذكياء من الكلاب مع أفراد فصيلتها ومع الآدميين بعض إشارات بالرأس وغيرها للتعبير بطريق إرادى عن أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا لها ،

---

(١) انظر فى هذه الأصوات وغيرها « فقه اللغة » للثعالبى صفحات ٢٠٩ — ٢١٢ طبعة بيروت .

أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء . . . وهلم جرا . . وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ، الشمبنزيه ، الجيبون ، الأورانج – أوتانج) وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kohler عند فصائل القردة العليا عن ظواهر كثيرة من هذا النوع ، منها ما يعمله الشمبنزيه حينما يريد أن يرافقه آخر فى طريقه، أو يرغب فى أن يعطيه أحد زملائه شيئاً مما فى يده، أو يطلب نداءه عن بعد : فإنه فى الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محدقاً فيه ومتقدماً بعض خطوات فى الطريق التى يود أن يسلكاها معاً ؛ وفى الحالة الثانية يمد يده إلى زميله مد الاستجداء ؛ وفى الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن فى مثل هذه المناسبة [1] . وقرر الأساتذة كيربى وسبنسر وبورميستر وهوبير وفرانكلين Kirby, Spenser, Burmeister, Huber, Franklin أن كثيراً من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها ، بعضها مع بعض ، إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل فى احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة

---

(١) انظر كوهلر : « ذكاء الفصائل العليا من القردة » صفحة ٢٩٤ وتوابعها :
Kohler : Intelligence des Singes Supérieurs.

لوبوك Lubbock بطائفة كبيرة من التجارب بهذا الصدد ، فتبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون[١] .

وقد نشر الأستاذ « ألن ديفو » فى مجلة « نيتشر مجازين » مقالا تحت عنوان « لغة الحيوان فى الغاب » يتضمن حالات كثيرة من هذا النوع . وفيما يلى بعض مقتطفات من هذا المقال الطريف[٢] .

« إذا وجدت النحلة العاملة زهرة حافلة بالرحيق ، عادت طائرة إلى الخلية ، ثم تشرع ترقص محوّمة فى الفضاء رقصاً غريباً خاصاً يدل دلالة واضحة على معنى رسالتها المستعجلة . فيفهم سائر النحل فحوى هذا العمل ، فإذا به ينضم إليها واحدة فى أثر واحدة ، ثم لا يلبث الجمع أن يندفع كله قاصداً ينبوع هذا الرحيق . — وإذا أراد الحجل أن ينذر قومه بالخطر طار مسرعاً مسافة قصيرة متنقلا من شجرة إلى شجرة ، وهو يصفق بجناحيه تصفيقاً شديداً . — وأنثى الدببة إذا أرادت أن يسرع إليها ولدها نازلا من أعلى شجرة تسلقها ضربت بكفها جذع الشجرة . — وأنثى الظباء إذا أرادت

(١) انظر ريبو : « تطور المعانى الكلية » صفحتى ٦٦ ، ٦٧ — وانظر كذلك لوبوك : « النمل والنحل والزنابير » .

— Lubbock : Ants, Bees, and Wasps

وانظر كذلك رومان « الذكاء الحيوانى » .

Romanes ; Animal Intelligence

(٢) نقلا عن مجلة « المختار » الصادرة فى شهر اكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وقد لخصت هذه المجلة المقال المشار اليه .

أن تقول لخشفها : « اتبعني » ، شالت بذيلها الكث مرة واحدة حتى يرى بياضه الباطن . — ومن أعجب أساليب التفاهم بين الحيوان هو أسلوب الحديث بين الطائر الذى يسمى « الهادى إلى العسل » والحيوان المعروف باسم « أبو كعب » أو آكل العسل . فهذا الطائر يحب أكل يرقات النحل حين تكون كالدود ، وآكل العسل منهوم بحب العسل . والطائر الهادى إلى العسل لا قبل له بالتغلب على جماعات النحل الساخطة ؛ أما آكل العسل فهو قصير الرجلين ، فلا يستطيع أن يقطع المسافات الطويلة بحثاً عن خلايا النحل . فترى الهادى إلى العسل يطير مطوفا فى أنحاء الغابة باحثاً عن شجرة فيها خلية نحل ثم يرتد مسرعاً إلى ذلك القابع الصابر فيحوم فوق رأسه ، وهو يقول له بصوت رفيع عال : « شر ، شر » ، ويدلف آكل العسل متثاقل الخطو على أثر الطائر المرفرف بجناحيه . ولما كان هذا الحيوان فى وقاء من جلده الكثيف الشعر فلا يضره لسع النحل ؛ فهو يهجم على الخلية ويمزقها إرباً إرباً . ثم يجتمع هو والطائر على المائدة الشهية . ونحل الشجر فى المناطق الاستوائية يتكلم فينتقل كلامه من شجرة إلى شجرة ، وذلك بأن يدق دقاً شديداً على لحاء الشجر وورقه ، حتى يسمع لدقه صوت كأنه صوت انهمار رذاذ من مطر . — أما أسراب الفيلة فلا تكف لحظة عن غمغمة تسمع من حديث أو إشارة ؛ وهى لغة أداتها الإشارة بالآذان والخراطيم[1] » .

(١) وقد أنكر بعض العلماء وجود الإشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوانات . ومن هؤلاء العلامة واسمان Wasmann الذى يرى أن كل الإشارات =

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التى ذكرناها فى الفقرة السابقة وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات ، فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر الفصائل الحيوانية .

= الحيوانية التى يخيل إلى الإنسان أنها من هذا النوع هى فى الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شىء معين ، بل تقتصر على إثارة نشاطه فى ناحية يحددها العمل الذى سيتلو الاشارة . — وتابعه فى هذا أستاذى العلامة دولاكروا (انظر دولاكروا « اللغة والفكر » صفحة ٧٥ وتوابعها) .

هذا ، وقد كشف بعض الباحثين أنواعا أخرى غريبة من التفاهم بين الحيوان .

فن ذلك ما يمكن تسميته التفاهم بالرائحة : « فقد ذكر علماء الحيوان أن الذئب اذا زاد طعامه عن حاجته دفن جزءا منه فى التراب وخلف هناك شيئا من رائحته عالقا بالمكان ، فيفهم سائر الذئاب فحوى رسالته حق الفهم . والذئب يفصح عن نفسه مرة بعد أخرى بأن يخلف رائحته حيث يريد ، فتفهمها الذئاب أجود الفهم ، كما يفهم الرحالة من الناس إذا قرأ مذكرات كتبها رجل سبقه إلى هذه الرحلة . والذئاب والثعالب ، وهى فى الحقيقة من فصيلة الكلاب ، تعيش فى عالم لا تعد أرضه أرضا فحسب ، بل هى أرض مفعمة بالرائحة المعبرة . ويقول الأستاذ ف . بايتندجك الهولندى الذى تولى التجارب الشهيرة فى دراسة نفسية الكلاب : « ان الكلب مشغول أبدا بحديث لا ينقطع بينه وبين سائر الكلاب التى فى ناحيته عن طريق الشم » .

(مجلة المختار ، عدد اكتوبر سنة ١٩٤٧) .

وأغرب أنواع التفاهم بين الحيوان هو ما يكون بغير صوت ولا رائحة ولا اشارة ولا أية حركة أخرى . وفى هذا النوع يقول الأستاذ ألن ديفو : « وقد ذهب بعض علماء الحيوان إلى أنه ضرب من الاستشفاف « تليباثى » . وذهب آخرون إلى أنه ليس إلا ضربا من الحواس اللطيفة التى بلغ لطفها مبلغا تعجز عن ادراكه حواس الإنسان . وينكر آخرون ذلك كله إنكارا باتا . وأستطيع أنا أن أروى غير متحيز =

حقاً إن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة فى ظاهرها بهذا النوع من التعبير . ولكن بالتأمل فى هذه الأصوات يتبين أنها عارية عن خصائص اللغة فى صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات . وسنعرض فيما يلى لأهم ما يبدو عند الحيوان من هذا القبيل ، معقبين على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

= إلى فئة خبر هرتين عندى هما « سيم » و « سام » بينهما علاقة لا تنفضم من الأخوة والود ، وهما لا يختلفان أو يفترقان إلا فى شىء واحد : فإن « سيم » يحب الخروج إلى الصيد ؛ أما « سام » فيحب الكسل ، فيقضى الساعات قابعا فى البيت . ولكن بعد الشقة بينهما حين يفترقان لا يمنع فيما يظهر أن يظل بينهما ضرب من التفاهم والاتصال . فقد يخرج « سيم » أحيانا يتصيد ، فيغيب نصف يوم ، واذا بى أرى « سام » يهب من مضجعه على مكتبى يقظان فزعا ، ويرفع أذنيه متلهفا ، ويميل برأسه كالمنصت المصغى ، وما هو إلا أن يعدو نحو الباب ، فاذا فتحت له الباب انطلق كأنه سهم مقذوف إلى الحقول تارة وإلى الغابة تارة أخرى . ولو بدا لى أن أخرج فى أثره لما خامرنى ريب فيما سوف أجد . فهذا الصياد « سيم » قد ولى وجهه شطر البيت ومعه صيد صاده لساعته ، فعرف « سام » خبر صاحبه ، وان كنت لا أدرى كيف عرف . قد تقول أنه عجب لا يصدق ! نعم ربما كان كما تقول ! و لكن ما أكثر ما نجهل مما يدور فى طوايا حواس الحيوانات ونفوسها ، حتى لنرى أن أكثر العلماء علما وتجربة لا يصر اصرار العنيد على انكار اللغة الصامتة التى يتفاهم بها حيوان الغاب ، أيا كانت طبيعة تلك اللغة » . (مجلة المختار عدد أكتوبر ١٩٤٧ ص ٤٨) . — ومن هذا النوع كذلك ما دونه الأستاذ ألن ديفو عن الثعالب إذ يقول : « وقفت مستترا ببعض الشجر أرقب ثلاثة من صغار الثعالب تلعب ، وأمهن =

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير عن بعض شئونه : كالحمحمة التى يرددها الفرس بشكل إرادى عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ؛ والمواء الذى يلجأ إليه الهر لينبىء به عن جوعه ؛ والنباح الذى يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل وإرشادهم إلى أن شخصاً يحوم حول البيت . . . وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست ، فى الواقع ، من اللغة الصوتية فى شىء ، وإن أشبهتها فى ظاهرها ووظيفتها . وذلك أنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض . هذا إلى أنها فى الأصل أصوات فطرية تصحب

= على باب الوجار تتبعهن البصر راضية مطمئنة، فاذا بصغير من الثلاثة يعدو موغلا فى المرج ، وكان أصغر من أن يباح له أن يخرج وحيدا يطوف فى أرجاء هذا العالم . فاستوت الأم قائمة ، وسددت أنفها إلى الناحية التى ذهب فيها ، وبقيت على هذه الهيئة ساكنة صامتة لا تتزحزح ، ولم يند عنها صوت يسمع ، ولكن لم ألبث قليلا حتى رأيت الصغير عائدا أدراجه ، فتلفت يمنة ويسرة ، ثم سدد بصره إلى أمه فلم تحول بصرها عنه ، وإذا بالصغير يسرع إلى وجاره كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين » .

(مجلة المختار عدد اكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٥) .

الانفعالات ، وأن كل ما يعمله الحيوان حيالها فى هذه الحالة أن يرددها هى نفسها بشكل إرادى للدلالة على نفس الانفعالات التى تعبر عنها فى شكلها الفطرى أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف . . .) الخ . وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها كلاما ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات [١] .

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة فى اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادى ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض . — وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح فى الفصائل العليا من القردة وبخاصة « الجيبون [٢] » .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعى عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الإنسانى فى شهوره الأولى كما سنذكر ذلك فى الباب الثانى . وقد رأينا تسمية هذا النوع عند الطفل « بالأصوات الوجدانية الإرادية » . — وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحيانا لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن السرور .

(٢) ولهذه الأمور وما شاكلها ذهب بعض العلماء إلى أن للقردة لغة تتألف من اثنتين وثلاثين كلمة ، ويذهب الدكتور آرثر جرينهول المدير العام لحدائق الحيوان فى ديرويت إلى أن الحيوانات الوحيدة التى تصدر عنها أصوات تشبه اللغة هى الشمبانزى (انظر جريدة « الأهرام » فى عددها الصادر يوم ٨/١٢/٤٨) .

إرادى لهذا التعبير [١] ، وبعضها من ظواهر التداعى الآلى [٢] أو العدوى الصوتية [٣] أو تقليد الحيوان بطريق فطرى غير إرادى لأصوات نفسه أو أصوات غيره [٤] . — هذا إلى أنها — على الرغم من تنوعها ، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة وأعضاء النطق الإنسانية — أصوات مبهمة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات غير متميزة العناصر . وقد تقدم [٥] أن من أهم خصائص الكلام اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها عن بعض [٦] .

---

(١) أى من الأصوات التى سبق ذكرها فى الطائفة الأولى .

(٢) وذلك أن يرتبط الصوت بشىء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل تلقائى غير إرادى كلما ظهر هذا الشىء . وسيأتى بيان ذلك بتفصيل فى الطائفة الثالثة .

(٣) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات ، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد : يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ويبكى أحدهم فيبكى لبكائه الباقون (انظر تفصيل هذا بكتابى « عوامل التربية » ص ١٨٣ وتوابعها) .

(٤) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة .

(٥) انظر ص ١٥ .

(٦) انظر فى هذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfungst الذى درس أكثر من مائتى قرد فى حديقة الحيوان ببرلين ؛ وبحوث Bouton الذى لاحظ أثناء خمس سنوات أدوار نمو قرد من فصيلة الجيبون ؛ وبحوث كوهلر الذى كتب كثيرا فى القردة وبخاصة القردة العليا التى ألف فيها كتابه الشهير : « ذكاء القردة العليا » وانظر كذلك ما كتبه أستاذى العلامة دولاكروا بهذا الصدد فى كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابعها .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالببغاء وما إليها من الفصائل التى امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهى تصدر عنه فى ثلاث حالات ، كلها فطرية آلية عارية بتاتاً عن هذا القصد :

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبساً بانفعال جسمى أو نفسى . وهى فى هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعى عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ؛ ويثيرها بشكل آلى الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التى تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلى أو منعكس وتلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهى حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليهما من مظاهر « التعبير الطبيعى السمعى » . وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعى السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى فى صورة أصوات بسيطة مبهمة ، ويبدو عند هذه الطيور أحياناً فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع .

(والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت إنسان سمعه الطائر .

وهى فى هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلى عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها . وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك أحياناً وحدها وتلفظ بشكل آلى نفس الأصوات التى يحسها الجهاز الأول . فكلما وصل صوت إلى سمعها فى ظروف خاصة انبعث صداه من أفواهها [١] .

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحياناً كلمات أو أصواتاً فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعاً من أمتعته [٢] .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شىء وإن التبست بها فى بادئ النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ، وإنما تصدر عنه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدر فيها ظواهر « التداعى الآلى » . فمن كثرة تكرار الكلمة أمام

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى مؤلفى « عوامل التربية » صفحتى ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصدد ما دونه الدكتور ولكس عضو الجمعية الملكية بصحيفة العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ .
Dr. Wilks, Journal of Mental Science.

الطائر بحضرة الشخص أو الشيء الذى تدل عليه ، يرتبط صوتها بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلى كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به [١] .

* * *

هذا ، ولا يمتاز الإنسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التى تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز إصدار الألفاظ ، مركز حفظ الكلمات المسموعة ... وهلم جرا) . فقد ثبت أن هذه المراكز لا يوجد لها نظير فى مخ أى فصيلة حيوانية أخرى ، حتى الفصائل العليا من القردة نفسها .

فالبحث فى نشأة اللغة عند الإنسان يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين : أولهما نشأة الكلام فى الفصيلة الإنسانية ؛ والآخر نشأة مراكز اللغة فى المخ الإنسانى . وسنعقد لكل منهما فصلا خاصاً . ثم نكمل بحوث هذا الباب بخمسة فصول : أولها فى المراحل الأولى التى اجتازتها لغة الإنسان بعد نشأتها وما انتابها من تطور فى هذه المراحل؛ وثانيها فى الفصائل التى انتهى إليها الآن تطور اللغات الإنسانية وتشعبها ؛ وثالثها ورابعها فى وجوه الخلاف والمشابهة بين هذه الفصائل ؛ وخامسها فى العوامل التى أدت إلى تشعبها على هذا الوجه .

(١) انظر فى هذا الموضوع كتابى الأستاذ رومان : « الذكاء الحيوانى » و « الارتقاء العقلى للإنسان » . — وانظر بحثا بهذا الصدد للعلامة ولكس فى المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ . Revue Philosophique

وانظر كذلك ما كتبه أستاذى العلامة دولاكروا فى كتابه « اللغة والفكر » ص ٧٨.

الفصل الثالث

نشأة الكلام

لاشك أن الفضل فى نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى المجتمع نفسه وإلى الحياة الاجتماعية . فلولا اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار والتعبير عما يجول بالخواطر من معان ومدركات ما وجدت لغة ولا تعبير إرادى .

ولا شك كذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية : فتخلقها فى صور تلقائية طبيعة الاجتماع ؛ وتنبعث عن الحياة الجمعية وما تقتضيه هذه الحياة من شئون [1] .

فليست المشكلة إذن فى البحث عن الأسباب التى دعت إلى نشأة اللغة ، ولا فى البحث عمن أنشأها . وإنما المشكلة فى البحث عن العوامل التى دعت إلى ظهورها فى شكل أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات ، والكشف عن الصورة الأولى التى ظهرت بها هذه الأصوات ، أى الأسلوب الذى سار عليه الإنسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وتوضيح الأسباب التى وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

---

(١) انظر فى ذلك كتابى فى « اللغة والمجتمع » وخاصة صفحات ٣ — ٦ .

وفى ضوء هذه الحقائق سنناقش النظريات التى قيلت فى نشأة اللغة ، فنرفض كل نظرية تذهب فى ذلك مذهباً لا يتفق مع هذه الحقائق المقررة ، أو تغفل المشكلة الرئيسية التى نحاول حلها .

هذا ، وأهم ما قيل فى نشأة اللغة يرجع إلى أربع نظريات :

(النظرية الأولى) تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلاهى هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء . وقد ذهب إلى هذا الرأى فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى هيراكليت Héraclite [١] وفى العصور الوسطى بعض الباحثين فى فقه اللغة العربية كابن فارس فى كتابه الصاحبى [٢] ، وفى العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامى Lami فى كتابه « فن الكلام » L'Art de Parler [٣] والفيلسوف دوبونالد

---

(١) فيلسوف اغريقى من المدرسة اليونية ولد بايفيزبا عام ٥٧٦ وتوفى عام ٤٨٠ ق م . ونسبة هذا الرأى له ليست يقينية .

(٢) انظر الصاحبى صفحات ٥ — ٧ . وقد مال إلى هذا الرأى كذلك ابن جنى فى كتابه الخصائص انظر الجزء الأول ص ٤٥ ، وإن كان قد رد فى أول الفصل على ما يعتمد عليه القائلون به ذاهبا إلى أنه لا ينهض دليلا لهم .

(٣) هو دوم فرنسوا لامى Dom François Lami ولد بمنتيرو Montireau من أعمال فرنسا سنة ١٦٣٦ وتوفى فى سان دينى Saint Denis سنة ١٧١١ ، وقد قام بتدريس الفلسفة بكثير من المعاهد الدينية . وإليه يرجع الفضل فى نشر آراء الفيلسوف ديكارت بهذه المعاهد .

Vicomte de Bonald فى كتابه التشريع القـــديم Législation primitive [١] .

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدى مذهبهم دليلا عقلياً يعتد به [٢] . وأما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلا عليهم لا لهم . فالمؤيدون لهذا الرأى من باحثى العرب يعتمدون على قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها [٣] » . وهذا النص ، كما ترى ، ليس صريحاً فيما يدعون ؛ إذ يحتمل أن يكون معناه — كما ذكر ذلك ابن جنى فى كتابه الخصائص وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين — أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ . وأما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة ، فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد فى سفر التكوين إذ يقول : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الإنسان . فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور

---

(١) اسمه لويس جبرائيل أمبرواز Louis-Gabriel Ambroise ولد بمدينة ميو Millau من أعمال فرنسا عام ١٧٥٤ وتوفى بها عام ١٨٤٠ . وله مؤلفات كثيرة فى السياسة والفلسفة . وكان من أكبر أنصار الحكومة الملكية الخاضعة للنفوذ الدينى الكاثوليكى .

(٢) سنبين فساد الأدلة العقلية التى ذكرها بعض المتعصبين لهذه النظرية عند مناقشتنا للنظرية الثالثة التى لا تختلف كثيرا جوهرها عن هذه النظرية .

(٣) سورة البقرة آية ٣١ .

السماء ودواب الحقول [١] » . وهذا النص ، كما ترى ، لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية ، بل يكاد يكون دليلا عليهم . ومهما يكن من شيء ، فلا صلة للدليل النقلي بمقام البحث العلمي . — وفضلا عن هذا كله ، فإن هذه النظرية تغفل إغفالا تاماً المشكلة الرئيسية التي تهمنا وحدها في هذا البحث والتي حددناها تحديداً دقيقاً في صدر هذه الفقرة .

(النظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالا . وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني ديموكريت Démocrite (من فلاسفة القرن الخامس ق . م) ، وفي العصور الوسطى كثير من الباحثين في فقه اللغة العربية ، وفي العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث Adam Smithe وريد Reid ودجلد ستيوارت Dugald Stewart .

وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي . بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية ، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . — هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها

---

(١) انظر الفقرتين ١٩ ، ٢٠ من الاصحاح الثاني من سفر التكوين .

بها المتواضعون [١] . فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل . [٢] وفضلا عن هذا كله فإن هذه النظرية تغفل إغفالا تاماً المشكلة التى تهمنا وحدها فى هذا البحث والتى وضحنا عناصرها فى صدر هذه الفقرة .

فلسنا هنا بصدد نظرية جديرة بالمناقشة ، بل بصدد تخمين خيالى وفرض عقيم يحمل فى طيه آية بطلانه . وقد ذهب المتعصبون له فى تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول . وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد : « إن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة » وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل منها سمة ولفظاً يدل عليه ويغنى عن إحضاره أمام البصر . وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلا على شخص ويومئوا إليه قائلين : إنسان ، إنسان ، إنسان ، فتصبح هذه الكلمة اسماً له . وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم . . . ، ويسيرون على هذه الوتيرة فى أسماء بقية الأشياء وفى الأفعال والحروف وفى المعانى

---

(١) سيأتى توضيح هذا فى النظرية الثالثة (انظر ص ٣٦) .

(٢) انظر كذلك فى الرد على هذه النظرية ، رينان « أصل اللغة » ص ٨٦ وتوابعها .

الكلية والأمور المعنوية نفسها [١] . وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلا . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة « مرد » بدل إنسان وكلمة « سر » بدل رأس . . . وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية [٢] ...».

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها فى الأصل جميع أفراد النوع الإنسانى ، وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعى عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء . . . الخ) كلما قامت به حالة انفعالية معينة (الغضب ، الخوف ، الحزن ، السرور . . . الخ) ، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت ، كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز

---

(١) لم يبين القائلون بهذه النظرية بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الحروف والدالة على المعانى الكلية ، مع أن هذه الأمور ليس لها فى الخارج مدلول حسى يشير إليه المتواضعون .

(٢) نقلا عن ابن جنى بتصرف : الخصائص ، جزء أول ، صفحتى ٤٢ ، ٤٣ .

الإنسانية القديمة . ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألمانى مكس مولر Max Müller [١] والعلامة الفرنسى رينان Renan [٢].

وقد اعتمد مكس مولر فى تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث فى أصول الكلمات فى اللغات الهندية الأوربية [٣] ،

---

(١) ولد ببلدة ديسو Dessau من أعمال ألمانيا عام ١٨٢٣ ، وتوفى بأكسفورد عام ١٩٠٠ . — وهو ابن الشاعر غليوم مولر . تخرج فى جامعتى ليبزج وبرلين . ثم رحل إلى باريس حيث حضر دروس الأستاذ بورنوف Burnouf فى اللغة السنسكريتية ، ثم ذهب إلى انجلترا واستقر بأكسفورد حيث عين أستاذا بجامعتها للآداب واللغات الحديثة ثم أستاذا للقواعد المقارنة . ومن أشهر مؤلفاته « دروس فى علم اللغة » ظهر عام ١٨٦١ و « دروس حديثة فى علم اللغة » ظهر عام ١٨٦٤ . وكان لهذين الكتابين شأن كبير فى القرن السابق . وله كذلك مؤلفات كثيرة فى الأديان وتاريخها .

(٢) ارنست رينان Ernest Renan من أشهر المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولد ببلدة تريجييه Trégier عام ١٨٢٣ وتوفى بباريس عام ١٨٩٠ . درس اللاهوت واللغات الشرقية والعلوم ومختلف فروع الفلسفة والآداب ، وتولى تدريس اللاهوت واللغة العبرية والتاريخ والفلسفة فى كثير من المعاهد . وعين عضوا بالأكاديمية الفرنسية ، ومديرا للكوليج دوفرانس Collège de France . وله نحو خمسين مؤلفا كبيرا فى التاريخ العام وتاريخ الديانات وفى اللغات والأخلاق والفلسفة واللاهوت والسياسة وغيرها . وقد كان لمؤلفاته أكبر أثر فى الثقافة الفرنسية فى القرن التاسع عشر .

(٣) هى احدى الفصائل الثلاث التى ترجع إليها اللغات الإنسانية كما سيأتى الكلام على ذلك بالتفصيل فى الفصل السادس من هذا الباب .

فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك ، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التى انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهى لذلك تمثل اللغات الإنسانية فى أقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية ؛ وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة .

ففى دلالتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها ، لأن التواضع ، فضلا عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، يتوقف هو نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون ؛ وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية ، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول ما نطق به الإنسان من هذه اللغة ؛ ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة ، لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أى على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها .

وفى عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التى سنتكلم عنها قريباً .

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق ، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء ، لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره : وهو أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان فى الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطرى للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة (١) .

وهذه النظرية — على ما فيها من دقة وطرافة وعمق فى البحث — فاسدة من عدة وجوه :

١ — فهى لا تحل شيئاً من المشكلة التى نحن بصددها بل تكتفى بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً وهى مشكلة « الغريزة الكلامية » ؛

٢ — هذا إلى أن ما تقرره يعتبر — من بعض الوجوه — من قبيل تفسير الشىء بنفسه . فكل ما تقوله يمكن تلخيصه فى العبارة الآتية : « إن الإنسان قد لفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات». وهذا . كما لا يخفى ، مجرد تقرير للمشكلة نفسها فى صيغة أخرى .

---

(١) انظر

Max Müller : Science du Language 9ème leçon .

٣ — على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث ، لأنه من المقرر أن الإنسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بلفظ هذا النوع من الأصوات ، بل إن هذا مشترك بين الإنسان وبعض الطيور كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وإنما الذى يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها فى تكوين الكلام الإنسانى ، أى البحث عن الأسلوب الذى سار عليه الإنسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التى وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره .

٤ — ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها تمثل اللغة الإنسانية الأولى . — فهذه الأصول ، كما تقدم ، تدل على معان كلية ؛ ومن الواضح أن إدراك المعانى الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها فى فاتحة النشأة الإنسانية . وها هى ذى الشعوب البدائية التى تعد أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما نقول . فقد أجمع علماء الإنتوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الشعوب بأمريكا واستراليا وأفريقيا وغيرها على القول بضعف عقلياتهم بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير فى لغاتهم . فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظاً يدل على معنى كلى . ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على

شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا ، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم [١] ، وفى لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ؛ ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه ؛ فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقه باللحم ، وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ، ورابع فى حالة تعلقه بالموز وهكذا ؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل فى زمن ما [٢] : ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmania (بقرب استراليا) ، لا يوجد بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجئوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ، فيقولون مثلا « فلان كشجرة كذا » إذا أرادوا وصفه بالطول [٣] .

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها لا تمثل فى شيء اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر ، بل أنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطاً كبيراً فى

---

(١) انظر Ribot : L'Evolution des Idées Générales p. 110

(٢) انظر Ribot. op. cit. 173, 174

(٣) انظر Ribot, op. cit. 204 et suiv.

سبيل الرقى والكمال ، ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلابعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها . ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن يوما ما موضوع لغة إنسانية[١].

(النظرية الرابعة) تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة ، الأصوات التى تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت الضرب والقطع والكسر . . . الخ) ، وسارت فى سبل الرقى شيئاً فشيئاً تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان ... وما إلى ذلك . وقد ذهب إلى هذا الرأى معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتنى Whiteny [٢] . وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفى العرب بالعصور الوسطى ؛ فقد تحدث عنه ابن جنى (المتوفى عام ٣٩٢هـ . أى من

---

(١) هذا هو رأى الأستاذين سيس وبريال Sayce, Bréal انظر فى ذلك Ribot, op. cit. 81, 82 .

(٢) من أشهر الباحثين فى علم اللغة ، وخاصة ناحية الدلالة (السيمنتيك) . ومن أشهر مؤلفاته : حياة اللغة (ظهر عام ١٨٧٥) واللغة ودراستها (ظهر عام ١٨٦٧) .

نحو ألف سنة) فى كتابه « الخصائص » فى أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله[1] .

فبحسب هذه النظرية ، يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التى تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن والرعب . . وما إليها ، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة وأصوات الأفعال والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجعة الرحى وقعقعة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب . . وهلم جرا . وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذى يصدر عنه الصوت المحاكى أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون . واستخدم فى هذه المحاكاة ما زود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع . وكانت لغته فى مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع ، قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التى أخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود ، ولذلك كان لابد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويعين على إدراك ما ترمى إليه . وقد وجد الإنسان خير مساعد لها فى الإشارات اليدوية ، والحركات الجسمية . وهذا المساعد

(١) انظر الخصائص جزء أول ص ٤٤ ، ٤٥ : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى ، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

الإرادى قد نشأ هو نفسه عن الحركات الفطرية التى تصحب الانفعالات . فكان فى مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات ، ثم توسع الإنسان فى استخدامه فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها . . . وما إلى ذلك ، فازدادت أهميته فى الحديث وسد فراغاً كبيراً فى اللغة الصوتية . ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضارته ، وتستغنى شيئاً فشيئاً عن مساعدة الإشارات وتبعد عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التى تعتور الصوت وأعضاء النطق الإنسانى وكعلاقات المجاورة والمشابهة التى تعتور الدلالات . . . وما إلى ذلك .

وهذه النظرية هى أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة وأقربها إلى المعقول ، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية . وهى إلى هذا وذاك تفسر المشكلة التى نحن بصددها ، وهى الأسلوب الذى سار عليه الإنسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التى وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره . ولم يقم أى دليل يقينى على خطئها . ولكن لم يقم كذلك أى دليل يقينى على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها ، وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها .

ومن أهم أدلتها أن المراحل التى تقررها بصدد اللغة الإنسانية

تتفق فى كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوى عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل ، فى المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ فى تعبيره الإرادى إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء ، أصوات الأفعال ... الخ) فيحاكى الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به . وثبت كذلك أنه فى هذه المرحلة وفى مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً كبيراً فى توضيح تعبيره الصوتى على الإشارات اليدوية والجسمية . — ومن المقرر أن المراحل التى يجتازها الطفل فى مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الإنسانى فى هذا المظهر [١] .

ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية فى مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات فى الأمم البدائية . ففى هذه اللغات تكثر المفردات التى تشبه أصواتها ما تدل عليه ؛ ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وإبهامها وعدم كفايتها للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصاً من الاستعانة بالإشارات اليدوية

---

(١) يطلق على هذه النظرية اسم « نظرية هيكل Hœckel أو « نظرية التلخيص العام » . وقد تكلمنا عنها بالتفصيل فى كتابنا : « عوامل التربية » ص١٢٣ وتوابعها .

هذا وسندرس بتفصيل فى الباب الثانى نشأة اللغة عند الطفل وتطورها ومبلغ تمثيلها لمراحل اللغة الإنسانية .

والجسمية فى أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر إليه من عناصر وما يعوزه من دلالة [١] . ومن المقرر أن هذه الأمم ، لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية ، تمثل إلى حد كبير النظم الإنسانية فى عهودها الأولى .

(١) انظر القسم الأخير من الفصل الأول .

الفصل الرابع

نشأة مراكز اللغة

تقدم أن الإنسان لا يمتاز عن الفصائل الحيوانية الأخرى باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك باشتمال مخه على مراكز تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز الكلام ، مركز حفظ الأصوات ، مركز الكلمات المرئية . الخ [1]) .

وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً فى نشأة هذه المراكز فى الفصيلة الإنسانية .

فالقائلون باستقلال النوع الإنسانى فى نشأته عن الأنواع الحيوانية الأخرى يذهبون إلى أنه قد خلق مزوداً بهذه المراكز كما خلق مزوداً بخصائصه الأخرى كاعتدال القامة وإدراك المعانى الكلية . . وما إلى ذلك . ويرون أن هذه المراكز كانت فى مبدأ الخلق ساذجة قاصرة ؛ ثم ارتقت فى بعض الشعوب حتى وصلت إلى شأو كبير فى الدقة والنضج ، ولكنها جمدت فى شعوب أخرى فلم تتزحزح كثيراً عن الحالة الساذجة التى خلقت عليها . ويرجع

---

(١) انظر آخر الفصل الثانى . — هذا ولا يتسع المقام للكلام عن هذه المراكز ووظائفها وطريقة أدائها لها ؛ على أن هذا من بحوث علم النفس والفيزيولوجيا لا من بحوث علم اللغة .

الفضل فى ارتقائها إلى عوامل كثيرة منها كثرة استخدامها فى وظائفها وما تمرن عليه من عادات مكتسبة واتساع الحضارة الإنسانية وارتقاء التفكير . . . وهلم جرا .

فمراكز اللغة شأنها فى ذلك شأن أعضاء الحس وأعضاء الحركة فى الجسم الإنسانى : تخلق مزودة بالقدرة على القيام بوظائفها ، وتظل قابلة للارتقاء فى هذه الناحية ما أتيحت لها الوسائل المواتية ، فإن لم تتح لها قصرت عن القيام بوظائفها أو جمدت على الحالة التى كانت عليها فى نشأتها الأولى .

وأما القائلون بمذهب الارتقاء وتفرع الإنسان عن غيره من الفصائل الحيوانية ، فيرون أن الفضل فى نشأة هذه المراكز عند الإنسان يرجع إلى الظروف التى أحاطت به فى مبدأ نشأته وإلى الأمور التى ألجأته إليها مقتضيات حياته وبخاصة ما يتصل منها بشئون دفاعه عن نفسه . وقد اختلفوا فى تصوير هذه النشأة على الرغم من اتفاقهم على الأسس السابق ذكرها . وأشهر نظرياتهم بهذا الصدد نظرية دارون التى تتلخص فى أن الإنسان كان فى الأصل من الفصائل المتسلقة الأشجار ، ثم اضطرته ظروف قاهرة إلى العيش على الأرض ، حيث تعرض لإغارات الحيوانات القوية وسطوها عليه . فاستخدم فى مبدأ الأمر فى مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه كما كان يفعل من قبل وكما تفعل أفراد فصيلته . ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره إلى الارتماء فى أحضان عدوه ، فتعرض

حياته للخطر . فهدته غريزة المحافظة على الحياة إلى وسيلة أخرى تدفع عنه عدوان الحيوان بدون أن تضطره إلى الاصطدام به . وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعاً من حجارة أو خشب أو معدن . . . أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنه أو يضربه بطرفها الآخر . وقد كان لهذا الأسلوب الجديد أثران كبيران فى حياة الإنسان .

أحدهما أنه اضطره إلى الوقوف على رجلين اثنين فى أثناء دفاعه عن نفسه . ومن تكرار هذه الوقفة أخذت قامته تعتدل شيئاً فشيئاً حتى استوى القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى ، وأخذت عادة المشى على أربع تضعف بالتدريج حتى انقرضت (وإن كانت تظهر فى بعض مراحل الطفولة الإنسانية وفقاً لقوانين الوراثة النوعية التى تقضى بأن يجتاز الطفل فى سبيله من الطفولة إلى الرجولة نفس المراحل التى اجتازها النوع فى سبيله من الحيوانية إلى الإنسانية ومن الوحشية إلى الحضارة) .

والآخر (وهو الذى يهمنا فى موضوعنا) أن هذا الأسلوب الدفاعى قد أعفى الإنسان من استخدام فكه وأسنانه فى الدفاع عن نفسه ؛ فتعطلت هذه الأعضاء عن القيام بجزء من وظيفتها ، ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام الصدغية التى تتحرك مع الفم ، وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للجمجمة فزاد حجمها عما كانت عليه ، وباتساع حجم الجمجمة اتسع مجال النمو للمخ ،

فزاد حجمه ، ونشأت به مراكز جديدة لم تكن به من قبل ، من أهمها مراكز اللغة التى نحن بصدد الكلام عنها .

ولتأييد هـــذا الأثر الأخير ، قام العلامة أنتونى Anthony بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة) . وذلك بأن استأصل جزءاً من عضلاتها وعظامها الصدغية ، وتتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية ، فتبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد .

وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتحرى عن هذه الحقائق ، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهمنا منها الآن إلا الناحية المتعلقة بنشأة مراكز اللغة . فقد ظهر لهم بهذا الصدد أن تعطيل الفك والأسنان ، وإن نجم عنه اتساع فى الجمجمة ، لا يترتب عليه مطلقاً اتساع فى حجم المخ أو اختلاف فى تعاريجه وشكل تكونه . والتجربة التى قام بها أنتونى تدل هى نفسها على صحة ذلك . فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت عن أمخاخها ، بدليل أن الآثار التى تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد انمحت . فاتساع الجمجمة الناجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه لا يتبعه إذن اتساع فى حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون .

وكثيراً ما تتسع الجمجمة عند بعض الناس اتساعاً غير عادى لسبب آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه ، ولكن لم يحدث مطلقاً فى حالة من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت

صورته . وعلى العكس من ذلك نمو المخ نفسه . فإنه يرغم الجمجمة على الاتساع ويشكلها بالشكل الذى يتفق مع نموه . فإن قاومته ، بأن كان عظم اليافوخ[١] قد اشتد قبل أوانه ، تغلب على مقاومتها ، وشق لنفسه طريقاً على أى وجه : فأحياناً يدفعها إلى الأمام فينشأ الشخص بارز الجبهة ؛ وأحياناً يدفعها إلى أعلى فينشأ مسنم الرأس ؛ وأحياناً يدفعها من ناحيتين أو أكثر فينشأ مدنخ الرأس[٢] . . . وهكذا .— . فالطريق الطبيعى للارتقاء ، إن كان ثَم ارتقاء ، هو أن يتسع المخ أولا وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل ، ويتبع ذلك اتساع فى الجمجمة ، لا أن تتسع الجمجمة أولا ويتبعها اتساع المخ كما يقول دارون ومن نحا نحوه .

على أن الارتقائيين لم يكونوا فى حاجة إلى هذه الفروض التعسفية لتعليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم . فقد كان فى إمكانهم أن يذهبوا إلى أن هذه المراكز لم تنشأ من العدم ، بل كانت نتيجة تطور لمراكز قديمة أو لأجزاء من مراكز قديمة . كان فى إمكانهم مثلا أن يذهبوا إلى أن جزءاً من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه Centre des mouvements des muscles de la face قد تخصص فى حركة أعضاء النطق . ومع تقادم الزمن وكثرة

(١) حيث يلتقى عظم مقدم الرأس بعظم مؤخره وهو الذى يكون لينا فى الصبى .

(٢) « رجل مدنخ الرأى أى فى رأسه ارتفاع وانخفاض » (المخصص لابن سيده جزء أول ص ٦٢) . والعامة تقول شخص برأسين أو برءوس .

مزاولته لهذه الوظيفة تشكل بالشكل الذى يتفق معها ، واستقل عن غيره ، وأخذ يسير فى سبيل الارتقاء حتّى وصل إلى الحالة التى هو عليها الآن . كان فى إمكانهم أن يقولوا هذا بصدد مركز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز اللغوية الأخرى ، فيتقوا معظم ما وجه إلى فروضهم السابقة من اعتراضات ، ويكون مذهبهم أدنى إلى القبول وأكثر اتفاقاً مع حقائق الأمور . وذلك أنه بالموازنة بين مخ الإنسان وأمخاخ الحيوانات القريبة منه ، يظهر أن مراكزه اللغوية — على فرض أنها لم تكن موجودة فى أصل خلقته — كانت نتيجة تشكيل جديد لبعض المراكز الموجودة فى أمخاخ هذه الحيوانات .

الفصل الخامس

المراحل الأولى التى اجتازتها اللغة الإنسانية

تقدم أن اللغة الإنسانية قد نشأت ناقصة ساذجة مبهمة فى نواحى أصواتها ومدلولاتها وقواعدها ، ثم سارت بالتدريج فى سبيل الارتقاء [١] .

وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً فى بيان المراحل التى اجتازتها فى هذا السبيل .

فبعضهم نظر إلى الموضوع من الناحية الصوتية ، فحاول أن يكشف عما كانت عليه أصوات اللغة الإنسانية فى مبدأ نشأتها وعن مراحل ارتقائها . — وقد ذهب معظم هؤلاء إلى أن اللغة قد سارت بهذا الصدد فى ثلاث مراحل :

(المرحلة الأولى) مرحلة الصراخ Le Cri . — وفى هذه المرحلة لم يكن فى أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (وهى الأصوات التى نرمز إليها بحروف اللين) ولا أصوات ساكنة (وهى الأصوات التى نرمز إليها بالحروف الساكنة) ؛ وإنما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ ، وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة

---

(١) انظر صفحات ٤٠ — ٤٢ .

والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجعة الرحى وصوت القطع والضرب . . وهلم جرا .

(والمرحلة الثانية) مرحلة المد Vocalisation وفيها ظهرت أصوات اللين فى اللغة الإنسانية .

(والمرحلة الثالثة) مرحلة المقاطع Articulation وفيها ظهرت الأصوات الساكنة فى اللغة الإنسانية (الباء . التاء . الثاء . . الخ) .

ويعتمد أصحاب هذه النظرية فى تأييدها على أمور مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم البدائية .

أما فيما يتعلق بالطفل فقد ظهر أن أصواته تجتاز نفس المراحل التى ذكرها أصحاب هذه النظرية . فأصواته فى المبدأ يتألف معظمها من الصراخ والأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ؛ ثم تكثر لديه فى المرحلة التالية أصوات المد ؛ وفى آخر مرحلة يجتازها قبل أن يظهر لديه التقليد اللغوى ، وهى المرحلة التى يسميها علماء النفس بمرحلة « التمرينات النطقية » ، تكثر فى نطقه الأصوات الساكنة [١] . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن كثيراً من العلماء يرى أن المراحل التى يجتازها الطفل فى مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الإنسانى فى هذا المظهر [٢] .

---

(١) سنتكلم عن هذا الموضوع بالتفصيل فى الباب الثانى .

(٢) انظر آخر ص ٤٢ وأول ص ٤٣ والتعليق الأول فى هذه الصفحة الأخيرة .

وأما فيما يتعلق بلغات الأمم البدائية فقد لوحظ فى كثير منها أن الأصوات المبهمة وأصوات المد تفوق كثيراً الأصوات الساكنة فى كميتها وأهميتها فى الدلالة[١] . وقد تقدم أن هذه الأمم — لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية — تمثل إلى حد كبير الأساليب الإنسانية فى عهودها الأولى[٢] .

وليس من بين هذه الأدلة ما يمكن عده برهانا قاطعاً على صحة هذه النظرية . بل أن معظم المحدثين من علماء اللغة يقطعون بفسادها . وحجتهم فى ذلك أنه لا يوجد من بين اللغات الإنسانية المعروفة — سواء فى ذلك اللغات الحية والميتة ، والراقية والساذجة — لغة خالية من أصوات اللين أو من الأصوات الساكنة ، وأنه من المتعذر تصور لغة إنسانية عارية عن أحد هذين النوعين . هذا إلى أن ظهور الأصوات ذات المقاطع (الأصوات الساكنة) فى لغة الإنسان لم يكن ليتوقف على ارتقاء فى لغته أو على تطور صوتى أو على مراحل

---

(١) فى لغات الفيجيين والهوتنتوت وقبائل أخرى من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية تكثر الأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة

V. Ribot, op. cit. p. 78

وفى لغات السياميين والصينيين مثلا نرى أن معظم ظواهر الدلالة تتصل بحروف المد . فكلمة « ها » مثلا معناها « البحث » فى لغة السياميين ، فاذا مدت ألفها قليلا وفتح الفم فى نطقها أصبح معناها الوباء ، وإذا مدت قليلا بدون فتح الفم أصبح معناها خمسة .

(٢) انظر ص ٤٣ .

يجتازها فى هذا السبيل كما يزعم أصحاب هذه النظرية ؛ لأن الأصوات ذات المقاطع توجد عند كثير من فصائل الحيوانات نفسها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك [١] .

وبعضهم نظر إلى الموضوع من ناحية مفردات اللغة ودلالة بعضها على معان جزئية وبعضها الآخر على معان كلية ، وحاول أن يبين أى القسمين كان أسبق ظهوراً من الآخر .

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وانقسموا إلى فريقين :

الفريق الأول — وعلى رأسه مكس مولر — يرى أن اللغة الإنسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان كلية ، ثم انشعبت عن هذه الألفاظ الكلمات الدالة على المعانى الجزئية . — ودليلهم على هذا أن الأصول المشتركة التى ترجع إليها المفردات فى جميع اللغات الهندية — الأوربية ، والتى تمثل فى نظرهم اللغة الإنسانية فى أقدم عصورها ، تدل على معان كلية كما سبقت الإشارة إلى ذلك[٢] .

وقد ناقشنا هذه النظرية فيما تقدم فتبين فسادها ، وظهر أن هذه الأصول لا تمثل اللغة الإنسانية فى عهودها الأولى ، وأنها بقايا من لغة راقية لم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن اجتازت فى حياتها

---

(١) انظر القسم الأخير من الفصل الثانى .

(٢) انظر النظرية الثالثة فى الفصل الثالث .

اللغوية مراحل طويلة ، وأن بعض الباحثين يذهب إلى أكثر من هذا فيقرر أننا بصدد أصول نظرية لم تكن يوماً ما لغة كلام [١] .

والفريق الثانى يرى أن اللغة الإنسانية بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية . — وهـــذا الرأى أدنى إلى الصحة ، وأقرب إلى المعقول ، وتؤيده حالة اللغة عند الطفل وعند الأمم البدائية كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٢] .

وبعضهم يبحث فى هذا التطور من ناحية ثالثة قريبة من بعض الوجوه من الناحية السابقة ، فيتساءل عن المراحل التى ظهر فيها كل من الاسم والصفة والفعل والحرف فى الكلام الإنسانى . وأشهر نظرية بهذا الصدد هى نظرية العلامة ريبو Ribot التى تقرر أن الصفة هى أول ما ظهر فى اللغة الإنسانية ، ثم تلتها أسماء المعانى وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال (وبظهور الأفعال دخلت اللغة الإنسانية فى أهم مرحلة من مراحل رقيها ، فلا يخفى أهمية الأفعال فى الحديث وكثرة وظائفها فى الدلالة) ، ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف .

وقد اعتمد فى تأييد نظريته هذه على أدلة كثيرة بعضها يرجع إلى لغة الطفل ولغات الأمم البدائية ، وبعضها يرجع إلى بحوث

---

(١) انظر صفحات ٣٨ — ٤٠ .

(٢) انظر صفحتى ٣٨ ، ٣٩ وانظر كذلك الفصل الثانى من الباب الثانى .

إيتيمولوجية (دراسة أصول الكلمات) أو نفسية . فمن ذلك أن الأصول الهندية الأوربية التى كشفها « مكس مولر » يتألف معظمها من كلمات دالة على صفات ، وفى هذا دليل على أن الصفات كانت أسبق الكلمات ظهوراً فى اللغة الإنسانية ؛ وأن معظم أسماء المعانى وأسماء الذوات مشتقة فى كثير من اللغات من كلمات دالة على صفات (grand, grandeur ; free, freedom . . etc.) وفى هذا دليل على أن الأسماء لم تظهر فى اللغة الإنسانية إلا بعد ظهور الصفات ؛ وأن معظم الأفعال فى اللغات الهندية الأوربية مأخوذة من كلمات دالة على صفات أو أسماء مضاف إليها بعض حروف من ضمائر ، وفى هذا دليل على أن الأفعال قد ظهرت بعد ظهور الصفات والأسماء ؛ وأن كثيراً من لغات الأمم البدائية مجردة من الحروف [1] ، وأن لغة الطفل لا تظهر فيها الحروف إلا فى آخر مرحلة من مراحلها ، ففى المراحل الأولى ينطق الطفل بأجزاء الجملة عارية عن الحروف وعن علامات الربط [2] ، وفى خلو اللغات البدائية ولغة الطفل فى مراحلها الأولى من الكلمات الدالة على حروف دليل على أنها آخر ما ظهر فى اللغات الإنسانية .

وليس من بين هذه الأدلة ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحة هذه النظرية ؛ بل إنها ظاهرة الخطأ فى بعض نواحيها ، وخاصة إذ تقرر

---

(١) سيأتى الكلام على ذلك فى اللغات غير المتصرفة (انظر صفحتى ٦٠ ، ٦١) .

(٢) سيأتى الكلام على ذلك بالتفصيل فى الفصل الثانى من الباب الثانى .

أن الصفات كانت أسبق ظهوراً فى اللغة الإنسانية من أسماء الذوات . ففى هذه الناحية يوجه إليها نفس المآخذ التى وجهناها إلى نظرية مكس مولر [١] .

وبعضهم يبحث فى هذا التطور من ناحية رابعة تتعلق بقواعد الصرف والتنظيم (المورفولوجيا والسنتكس) [٢] .

وأشهر نظرية بهذا الصدد هى النظرية التى قال بها العلامة شليجل Schlegel وتابعه فيها جمهرة كبيرة من علماء اللغة . وهى تقسم اللغات الإنسانية من هذه الناحية إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) اللغات « المتصرفة » Flexionnelles, ou à flexion أو التحليلية Analytique . — ويمتاز هذا القسم من ناحية « المورفولوجيا » بأن كلماته تتغير معانيها بتغير مبانيها ، ومن ناحية « السنتكس » بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة[٣] تدل على مختلف العلاقات . وذلك كاللغة العربية ،

---

(١) انظر النظرية الثالثة فى الفصل الثالث .

(٢) انظر معنى هاتين الكلمتين بالتفصيل فى كتابنا علم اللغة الطبعة السادسة صفحات ٧ — ٩ .

(٣) نقصد باستقلال الروابط زيادتها عن أصوات الكلمة . فالواو القصيرة (الضمة) والنون الساكنة الملحقتان بكلمة « محمد » فى جاء محمد « محمدون » تعتبران من الروابط المستقلة . وهما تشيران فى هذا التركيب إلى أن مدلول محمد هو الذى أحدث الحدث .

فإن كلماتها تتغير معانيها بتغير بنيتها ؛ فنقول علْمٌ للدلالة على المصدر ، وَعلم للدلالة على الفعل فى الماضى ، وعلَّمَ للدلالة على تعدى الفعل ، واعلمْ للدلالة على الأمر ، والعلوم للدلالة على جمع العلم ، والمعلوم للدلالة على ما وقع عليه العلم ، والعلامة للدلالة على وسيلة العلم . . وهلم جرا .

هذا من ناحية الصرف . أما من ناحية التنظيم فإن عناصر جملها يتصل بعضها ببعض عن طرق روابط مستقلة تشير إلى مختلف العلاقات : فنقول مثلا ذهب محمد وعلى من المنزل إلى الجامعة ؛ فنأتى بواو قصيرة ونون زائدة بعد دال محمد للدلالة على أنه أحدث الحدث ، وتأتى بالواو العاطفة بين محمد وعلى للدلالة على عطف عنصر من عناصر الجملة على آخر ، وبمن للدلالة على الابتداء ، وبإلى للدلالة على الانتهاء . — وما قيل فى اللغة العربية يقال مثله فى بقية اللغات السامية وفى اللغات الهندية — الأوروبية .

وسميت هذه الطائفة من اللغات « بالمتصرفة » لتغير أبنيتها بتغير المعانى ؛ و « بالتحليلية » لما تتخذه حيال الجملة من تحليل أجزائها وربطها بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات .

(القسم الثانى) اللغات « اللصقية » أو « الوصلية » أو « المجمعة » Agglutinantes ou, Agglomérantes, ou synthétiques ويمتاز هذا القسم من ناحيتى المورفولوجيا والسنتكس بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بما عداه من أجزاء الجملة يشار إليهما بحروف

تلصق بـــه . وتوضع هـــذه الحروف أحياناً قبـــل الأصل فتسمى « سابقة » Préfixes وأحياناً بعده فتسمى « لاحقة » Suffixes [١] . وبعض هـــذه الحروف ليس له دلالة مستقلة ، ولكن معظمها كان فى الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها وأصبحت لا تستخدم إلا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذى تلصق به أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة . ومن أشهر هذه الفصيلة اللغة اليابانية واللغة التركية وبعض لغات الأمم البدائيـــة كلغة الإيروكويين Iroquois [٢] والبنتويين

---

(١) يختلف هذا الأسلوب باختلاف اللغات . فبعض اللغات اللصقية تستخدم الحروف « السابقة » كاللغة البنتوية ، وبعضها يستخدم الحروف « اللاحقة » كالتركية ، فنزل فى التركية مثلا يقال له أو Ew ، فاذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بآخره دالا مكسورة ونونا للدلالة على المجاوزة فتقول اودن Ewden ، واذا أردت جمعه ألصقت بآخره لاما مكسورة وراء فتقول اولر Ewler ، واذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بالجمع الدال والنون الدالتين على المجاوزة فتقول اولردن Ewlerden .

وقد يجتمع الطريقتان فى لغة واحدة فتستخدم أحيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللا حقة .

(٢) عشائر من الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) . — وقد يلحق بالأصل الواحد فى لغتهم عدد كبير من هذه الحروف للدلالة على كثير من العلاقات والمعانى ، فتصبح الكلمة الواحدة كثيرة الأصوات كبيرة المدلول . فقد روى العلامة ريبو أنه توجد فى لغتهم كلمة واحدة تدل على ما يأتى : « اطلب نقودا من هؤلاء الذين جاءوا ليشتروا منى الأقمشة » . ويكثر كذلك هذا النوع من الكلمات الطويلة بلغة الاسكيمو V, Ribot, op. cit. 86

Bantous (١) .

وسميت هذه اللغات « باللصقية » أو « الوصلية » للطريقة التى تتبعها حيال الأصل إذ تلصق به حروفاً زائدة عن حروفه لتوضيح المعنى المقصود منه أو للإشارة إلى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة.

(القسم الثالث) اللغـــات « غير المتصرفة » monosyllabiques أو « العازلة » Isolantes . ويمتاز هـــذا القسم من ناحيـــة « المورفولوجيا » بأن كلماته غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل . فكل كلمة تلازم شكلا واحداً وتدل على معنى ثابت لا يتغير . ويمتاز من ناحية « السنتكس » بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بما عداه ، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض ، وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام . — ويدخل فى هذا القسم اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم البدائية .

وسميت هذه اللغات « بغير المتصرفة » لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها ، و « بالعازلة » لأنها تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات .

(١) يطلق هذا الاسم على سكان القسم الجنوبى بافريقيا الاستوائية (ما عدا قبيلتى الهوتانتوت والبوشيمان (Hotentots, Bochimans وترجع لغاتهم إلى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية فى مبدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (اللغات غير المتصرفة) ؛ ثم ارتقت إلى الثانى (اللغات اللصقية) ؛ ولم تصل إلى حالة النوع الأول (اللغات المتصرفة) إلا فى آخر مرحلة قطعتها فى هذا السبيل . — غير أن بعض اللغات الإنسانية قد وقفت فى نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى كاللغة الصينية ، أو لم تتجاوز المرحلة الثانية كاليابانية والتركية .

ويستدلون على صحة هذه النظرية بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم البدائية على النحو الذى تقدم شرحه فى النظريات السابقة .

ولكن ليس من بين أدلتها ما ينهض برهاناً قاطعاً على صحتها . بل قامت أدلة كثيرة على خطئها . فمن ذلك أن الأساليب الثلاثة التى تعرض لها (التصرف واللصق والعزل) توجد مجتمعة فى كل لغة إنسانية ، وأنه من المتعذر أن نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها .

فاللغة العربية ، كما يوجد بها مظاهر من أسلوب التصرف والتحليل كما تقدم ، يوجد بها مظاهر كثيرة من الأسلوبين الآخرين . فهى تسير على طريقة اللصق بالحروف « اللاحقة » و « السابقة » فى حالات كثيرة كجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم والتعدى بالهمزة (قائم ، قائمون — زينب زينبات — قام علىّ وأقام علىّ الصلاة) . . . وهلم جرا . وتسير كذلك على طريقة

العزل فى كثير من التراكيب : فبعض الجمل الاسمية والجمل الفعلية لا ترتبط عناصرها بعضها ببعض بأى رابط ملفوظ ، وإنما تفهم العلاقة بينها من ترتيبها أو من السياق ، مثل « ضرب موسى عيسى » ؛ وجميع الجمل على هذا النحو فى اللغات العامية المنشعبة عن العربية ، فقد تجردت جميعها من علامات الإعراب الدالة على وظائف الكلمات وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض .

وكذلك جميع اللغات الهندية — الأوروبية . فالإنجليزية والفرنسية مثلا تسيران أحياناً على طريقة التصريف والتحليل :

Je vois, je voyais, je vis, nous voyons, voir, la vue ; vous voyez <u>que</u> la linguistique <u>est</u> une science sociale. I see, I saw, I have seen, to see, the sight, you see <u>that</u> the science of languages <u>is</u> a social one.

وتسيران أحياناً على طريقة اللصق :

J'ajoute, j'ajouterai, tigre, tigresse. I care, I cared careful, carefulness.

وتسيران أحياناً على طريقة العزل :

Pierre bat Paul . . Tom beats Dick

ففى هذه الجمل لا يميز الفاعل من المفعول إلا مجرد ترتيبه .

ومثل هذا يقال فى جميع اللغات الإنسانية . فلسنا إذن بصدد فصائل لغوية متميزة ، بل بصدد أساليب مستخدمة فى جميع اللغات .

الفصل السادس

فصائل اللغات

— ١ —

أشهر الآراء فى فصائل اللغات

ومهما يكن من شىء بشأن المراحل الأولى التى اجتازتها اللغة بعد نشأتها ، والتى عرضنا لأشهر النظريات بصددها فى الفقرة السابقة ، فإن اللغات الإنسانية قد انتهى بها الأمر فى تطورها وانشعابها[١] أن انقسمت إلى عدة فصائل ، وانقسمت كل فصيلة منها إلى عدة شعب وكل شعبة إلى عدة لغات ، وكل لغة إلى عدة لهجات .

وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً فى تقسيم اللغات تبعاً لاختلافهم فى الأساس الذى يقوم عليه هذا التقسيم .

ولكن أشهر النظريات وأمثلها بهذا الصدد هى نظرية مكس مولر Max Muller التى تراعى فى تقسيم اللغات إلى فصائل أن يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات قرابة لغوية ، فتتفق فى أصول

---

(١) عرضنا بالتفصيل للعوامل التى تؤدى إلى تطور اللغة وانشعابها فى كتابينا « علم اللغة » و « اللغة والمجتمع » .

الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل . . . وما إلى ذلك ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ، وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وعلى هذه الأسس ترجع نظرية مكس مولر جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل : الفصيلة الهندية الأوروبية ؛ والفصيلة السامية الحامية ؛ والفصيلة الطورانية(١) . وسنتكلم على كل فصيلة منها على حدة فيما يلى :

---

(١) فطن كثير من العلماء قبل مكس مولر إلى صلات القرابة التى تربط اللغات الهندية والآرية والأوروبية بعضها ببعض ، وإلى الصفات التى تشترك فيها أفراد الفصيلة الحامية السامية ؛ كما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا « علم اللغة » (الطبعة السادسة ص ٤٩) وفى كتابنا « فقه اللغة » (الطبعة السادسة صفحتى ٣٩ ، ٤٠) — ولكن يرجع الفضل إلى مكس مولر فى تكملة هذه البحوث ونشرها ، وفى دراسة الفصيلة الهندية الأوروبية على الأخص دراسة عميقة مستوعبة ، وفى إضافة فصيلة ثالثة إلى الفصيلتين السابقتين ، وهى فصيلة اللغات الطورانية (وقد اتفق معه فى جعل هذه اللغات فصيلة ثالثة العلامة الألمانى بونسن Bunsen فى كتاب له Outlines of the philosophy of Universal History ظهر فى نفس العصر الذى ظهر فيه بحث مكس مولر بهذا الصدد
(Letter on the Classification of the Turanian Languages)
ولهذا نسب إلى مكس مولر تقسيم اللغات إلى هذه الفصائل الثلاث .

— ٢ —

الفصيلة الأولى : الهندية الأوروبية

Langues Indo — Européennes

تشمل هذه الفصيلة ثمان طوائف من اللغات ، وهى :

١ — « اللغات الهندية — الإيرانية » أو « اللغات الآرية » وتشمل شعبتين :

إحداهما شعبة اللغات الهندية (السنسكريتية Sanskrit والبراكريتية Prakrit واللغات الهندية الحديثة Languages Néo-indoues . . . الخ) .

والأخرى شعبة اللغات الإيرانية (الفارسية القديمة Vieu perse ؛ والأفستية والزند أفستية Avestique et Zend — Avestique وهى لغة الأسفار المقدسة المسماة الأفستا وشرحها المسمى الزند — أفستا ؛ والبهلوية Pehlvi ؛ والفارسية الحديثة Néo - Persan ؛ والكردية Kurde ؛ والأسيتية Ossète ، وهى لغة الأسيتيين Ossètes وهم سكان القوقاز الأوسط ؛ والأفغانية . . . وهلم جرا) .

ولكثرة وجوه الشبه بين هاتين الشعبتين عدهما علماء اللغة طائفة واحدة سموها طائفة « اللغات الهندية الإيرانية » أو « طائفة اللغات الآرية » .

وكان القدامى من علماء اللغة يتوسعون فى كلمة « اللغات الآرية» فيطلقونها على جميع طوائف الفصيلة الهندية — الأوروبية ، من قبيل إطلاق الخاص على العام . ولكن المحدثين منهم آثروا العدول عن هذا الاستعمال اتقاء للخلط واللبس ، فأصبحوا لا يطلقون كلمة « اللغات الآرية » إلا على الطائفة التى نحن بصدد الكلام عنها(١) .

٢ — « اللغات الأرمنية » Langues Arméniennes

٣ — « اللغات الإغريقية » (وتشمل اللغات اليونانية القديمة ، وأشهر هذه اللغات : اليونية — الأتيكية ، والدورية ؛ وتشمل كذلك اللغات اليونانية التى تكونت فى القرون السابقة للميلاد وقامت على أنقاض اللغات اليونانية القديمة ، واشتهرت عند علماء اللغة باسم « اليونانية الحديثة » ؛ وتشمل كذلك اللغات اليونانية فى العصر الحاضر) .

٤ — الألبانية .

٥ — « اللغات الإيطالية » (وتشمل الأسكية Osque ، والأمبرية السمنية Ombrien — Samnite ، واللاتينية ، واللغات الرومانية Langues Romanes وهى المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية ولغة رومانيا . . .الخ) .

٦ — « اللغات الكلتية » Langues Celtiques (التى كانت

---

(١) V. Les Langues du Monde p. 28

لغات شعوب السلت أو الكلت Les Celtes ، وقد طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، ولكن بقى بعض أشكال منها فى كثير من اللهجات المحلية بإيرلندا وويلز ومنطقة البريتون Bretagne فى الشمال الغـــربى من فرنسا على سواحل الاطلانطيق [١] .

(١) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشيء من استقلالها الذاتى حتى عام ١٤٩١ (فى عهد شارل الثامن) ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسى . ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا إلا عام ١٥٣٢ فى عهد فرنسوا الأول . وقد انقرضت اللغة السلتية فى هذه المقاطعة انقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك تقريبا من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر . وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة سنة ١٩٣٠ وقضيت عدة أشهر متنقلا فى بلا دها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين ، وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه إلا فيما بينهم أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ؛ ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأساليبها فى ألسنتهم كثير من التحريف .

غير أنه قد ظهرت حديثا حركة أطلق عليها القائمون بها اسم « حركة تحرير بريتانى » التى تعمل على احياء لغة البريتون القومية وجعلها لغة رسمية كما تعمل على الحصول على الاستقلال الذاتى للمقاطعة . وقد نشر « الأهرام » فى عدده الصادر فى ١٩٦٩/٢/١ أن ديجول (وكان رئيسا للجمهورية حينئذ) لما زار مقاطعة بريتانى فى جولة تستمر ثلاثة أيام أحيط بحراسة قوية حتى لا يتعرض للاعتداء من المتطرفين من أعضاء « حركة تحرير بريتانى » ، على الرغم من أن زعماء هذه الحركة قد قرروا فرض هدنة فى الصراع بينهم وبين الحكومة الفرنسية طوال فترة زيارة ديجول للمقاطعة ، وأعلنوا أنهم لن يشنوا أى هجوم على ديجول فى أثناء زيارته . ولعل سبب ذلك يرجع إلى ما أذيع من أن ديجول كان يأمل أن يعطى للمقاطعة درجة من الاستقلال الذاتى الإقليمى فى ظل إعادة تنظيم الأقاليم الفرنسية .

٧ — « اللغات الجرمانية » Langues Germaniques وتشمل ثلاث شعب :

أولاها : شعبة الجرمانية الشرقية وهى اللغة الجوتية Gothique (وهى لغة قبائل الجوث Goths وهو شعب قديم كان يسكن جرمانيا الشرقية) .

وثانيتها : اللغات الجرمانية الشمالية ، وهى لغات أيسلندا والدانيمرك والسويد والنرويج .

وثالثتها : شعبة اللغات الجرمانية الغربية وتشمل الإنجليزية — السكسونية ، والإنجليزية الحديثة ، والهولندية واللغة الفلامندية (لغة مقاطعة الفلاندر ببلجيكا . ويتألف من هذه اللغة مع اللغة الهولندية فرع لغوى واحد يسمى فرع اللغات النرلاندية) واللغات الألمانية . . . الخ .

٨ — « اللغات البلطيقية — السلافية » وتشمل شعبتين :

إحداهما : شعبة اللغات البلطيقية : وهى الليتوانية Lituanienne (لغة ليتوانيا Lettonie) والليتونية Lette (لغة ليتونيا Lituanie أو لاتفيا Latvia) والبروسية القديمة :

والأخرى شعبة اللغات السلافية أو الصقلبية : وهى السلافية

القديمة، والروسية ، والبولونية ، والتشيكية ، والسربية — الكرواتية، والبلغارية الحديثة[1] .

ومن هذا يظهر أن اللغات الهندية — الأوروبية هى أكثر اللغات الإنسانية إنتشاراً ، إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا والأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا (ما عدا بعض جماعات قليلة بأوروبا تتكلم البسكية أو الفينية أو المجرية أو التركية . . . وما إلى ذلك ، وما عدا السكان الأصليين للأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا الذين انقرض معظمهم ولم يبق منهم الآن إلا عدد يسير آخذ فى الانقراض) . ويتكلم بها كذلك قسم كبير من سكن آسيا (الهند ، فارس ، أفغانستان ، الكردستان ، القوقاز الأوسط ، أرمينيا . . . الخ) .

والشعوب الناطقة بهذه الفصيلة هى أرقى الشعوب مدنية فى العصر الحاضر ، وأعظمها نشاطاً ، وأكبرها شأناً ، وأكثرها إنتاجاً فى مختلف فروع الحياة ، وأجلها أثراً فى الحضارة الإنسانية الحديثة .

ويرجع الفضل فى انتشار هذه الفصيلة إلى عوامل كثيرة أهمها الغزو والاستعمار . فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت لغاتهم فى هذه البلاد وقضت على لغات السكان الأصليين (لم يبق من هذه

---

(١) أما البلغارية القديمة قبل أن يتغلب عليها اللسان الصقلبى فهى من فصيلة اللغات الفينوانية ، انظر الفقرة الرابعة من هذا الفصل .

اللغات إلا آثار ضئيلة سنعرض لها فى أثناء كلامنا على الفصيلة الثالثة) . وعلى أثر استعمار الأوربيين للأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا انتقلت إلى هذه المناطق اللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية .

أما الموطن الأول لهذه الفصيلة فلا نكاد نعرف شيئاً يقينياً عنه ؛ وقد ذهب العلماء بصدده مذاهب كثيرة تعتمد فى معظم نواحيها على الحدس والتخمين وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى : فمن قائل إنها نشأت بأوربا الشرقية بالمناطق الروسية ، ومن قائل إنها نشأت بمناطق بحر البلطيق .

وتمتاز هذه الفصيلة بكثرة شعبها واتساع هوة الخلاف بين أفرادها فقد انقسمت إلى الطوائف الثمان السابق ذكرها ، وانقسمت كل طائفة من هذه الطوائف إلى شعب ، وكل شعبة إلى عدد كبير من اللغات ، وسلكت كل لغة من هذه اللغات فى ارتقائها سبيلا يختلف عن سبيل غيرها ؛ فكثرت وجوه الخلاف بينها ، وتضاءلت وجوه الشبه ، حتى إن بعضها ليبدو غريباً عن بعض ، ولا تظهر صلة قرابته به إلا بعد تأمل عميق .

ويرجع السبب فى هذا إلى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات التى انتشرت فيها هذه الفصيلة واختلاف الشئون الاجتماعية التى اكتنفت الناطقين بكل شعبة منها .

وقد ترتب كذلك على هذه العوامل أن اختلفت كل لغة منها عما عداها فى درجة رقيها ومبلغ بعدها عن أصولها الأولى . فمنها مالايزال جامداً على خصائصه القديمة ، ومنها ما قطع فى زمن يسير مرحلة واسعة فى طريق الارتقاء ، ومنها ماسار فى هذا السبيل بخطى متئدة بطيئة . فانتشار الشعبة الإيرانية مثلا فى مناطق عريقة فى الحضارة ، وتأثرها باللغات التى كانت سائدة فى هذه المناطق . . . كل ذلك وما إليه قد ذلل لها وسائل الارتقاء ، فسارت فى هذه السبيل بخطى حثيثة ، حتى وصلت فى أوائل القرن الأول الميلادى إلى شأو لم تبلغ مثله اللغات الأوروبية إلا حوالى القرن العاشر . على حين أن انتشار اللغة الليتوانية مثلا فى منطقة زراعية ضيقة تغلب على أهلها صفة المحافظة على القديم ، وبقاء هذه المنطقة بمعزل عن تيارات الحضارة وعن المؤثرات الخارجية ، كل أولئك قد عاق تقدمها ، فظلت محتفظة بكثير من الأشكال الأولى لفصيلتها .

— ٣ —

الفصيلة الثانية : الحامية — السامية

Langues Chamito — Sémitques

تشمل هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات : إحداهما مجموعة اللغات السامية ؛ وثانيتهما مجموعة اللغات الحامية .

وتشتمل المجموعة الأولى على طائفتين :

١ — اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغات الأكادية Accadien أو الأشورية البابلية Assyro-Babyloniennes [١] ، واللغــات الكنعانية (العبرية والفينيقية) [٢] . واللغات الآرامية [٣] .

٢ — اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية[٤] واليمنية القديمة[٥] واللغات الحبشية السامية[٦] .

وأما مجموعة اللغات الحامية ، فتنتظم ثلاث طوائف :

١ — اللغات المصرية ، وتشمل المصرية القديمة والقبطية .

٢ — اللغات الليبية أو البربرية ، وهى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها) ، فتشمل اللغات القبلية Kabyles ،

(١) انظر تفصيل القول فى اللغات الأكادية فى الباب الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

(٢) انظر تفصيل القول فى اللغات الكنعانية فى الباب الثانى من كتابنا « فقه اللغة » .

(٣) انظر تفصيل القول فى اللغة الآرامية فى الباب الثالث من كتابنا « فقه اللغة » .

(٤) انظر تفصيل القول فى اللغة العربية فى الباب السادس من كتابنا « فقه اللغة » .

(٤) انظر تفصيل القول فى اللغة اليمنية القديمة فى الباب الرابع من كتابنا « فقه اللغة » .

(٦) انظر تفصيل القول فى اللغات الحبشية السامية فى الباب الخامس من كتابنا « فقه اللغة » .

والشاوية Chaouia (اللغـــات القديمة لسكان الجزائر) ، والتماشكية Tamachek (وهى اللغات القديمة لقبائل التوارج Touareg ، وهى قبائل رحالة بصحراء المغرب) . واللغات الشلحية أو لغات الشلحا أو لغـــات أهل الشلوح Chelouh (لغات السكان الأصليين لجنوب مراكش) ولغات زناجة Zénaga واللغات الجونشية Guanche (لغات السكان الأصليين لجزر قناريا Canaries بالمحيط الاطلانطيقى فى الشمال الغربى من الصحراء الكبرى) . . . وهلم جرا .

٣ — اللغات الكوشيتية Couchitiques [١] وهى لغـــات السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا المحصورين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية والتى تقدم ذكرها فى المجموعة الأولى ، وما عدا المناطق السودانية وما إليها التى سيأتى ذكر لغاتها فى الفصيلة الثالثة) ، فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا ، والبدجا ، ودنقلة ، والآجاو ، والأفار أو الساهو ، والسيداما . . إلخ .

Somalie, Galla, Bedja, Dankali, Agaw, afar ou Saho

ويتكلم باللغات الكوشية كذلك نحو ثلث سكان الحبشة .

ومن هذا يظهر أن المنطقة التى تشغلها الفصيلة الحامية — السامية

---

(١) نسبة إلى كوش Cuch وهو أحد أولاد حام (انظر سفر التكوين الاصحاح العاشر الفقرة السادسة وتوابعها) .

أصغر كثيراً من المنطقة التى تشغلها الفصيلة الهندية الأوربية . فبينما الفصيلة الهندية الأوربية تشغل أوربا والأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا وقسما كبيراً من آسيا ، إذ الفصيلة الحامية ـ السامية لا تشغل إلا بلاد العرب وشمال أفريقيا وجزءاً من شرقيها (إلى درجة عرض ٤ جنوب خط الاستواء) . فمنطقتها لا تتجاوز عشرين مليون كيلو متراً مربعاً ، بها قسم كبير صحراوى (ببلاد العرب وشمال أفريقيا) ، وعدد الناطقين بها يبلغ زهاء مائة مليون .

ولكنها تمتاز عن الفصيلة الهندية الأوربية بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أى عنصر أجنبى .

ويتألف من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها فى أصول واحدة قريبة ، وتتفق فى أساليب الحياة ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية .

ويجمع بين اللغات السامية (المجموعة الأولى من هذه الفصيلة) كثير من الصفات المشتركة المتعلقة بأصول الكلمات والأصوات ومخارج الحروف وقواعد الصرف والتنظيم . . . وما إلى ذلك . — وقد قويت وجوه الشبه بين بعض أفرادها حتى ليحسبها الباحث لهجات للغة واحدة (١) .

أما مجموعة اللغات الحامية (المجموعة الثانية من هذه الفصيلة) ،

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « فقه اللغة » وخاصة فى مقدمته .

فلا يوجد بين طوائفها الثلاث (المصرية والبربرية والكوشيتية) من وجوه الشبه والقرابة اللغوية أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها ومجموعة اللغات السامية . فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق فى شىء مع حقائق الأمور .

ولذلك عدل بعض المحدثين عن تقسيم هذه الفصيلة إلى مجموعتين وآثر جعلها بادىء الأمر أربع مجموعات : السامية والمصرية والبربرية والكوشيتية[١] .

وتختلف هذه المجموعات الأربع بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير فى كثير من الظواهر . ولكن بينها ، على الرغم من ذلك ، من وجوه الشبه والقرابة اللغوية ما يسمح بجعلها فصيلة واحدة مقابلة للفصيلة الهندية — الأوربية .

هذا ، وقد تغلبت مجموعة اللغات السامية على المجموعات الثلاث الأخرى واحتلت كثيراً من مناطقها . فاللغات القبطية والبربرية قد انهزمت أمام اللغة العربية ولم يبق منها الآن إلا فلول ضئيلة[٢] ، وكذلك كانت نهاية الكوشيتية فى صراعها مع اللغات

---

(١) وهذا هو ما سار عليه مارسل وكوهين Marcel et Cohen انظر Les Langues du Monde p.p 81—153, en Part, 83.

(٢) لا تزال البربرية إلى الوقت الحاضر لغة حديث بين كثير من القبائل المغربية وخاصة فى المغرب الأقصى والجزائر وتونس وفى بعض الواحات التابعة للجمهورية العربية الليبية وغيرها . ومن هذه الواحات واحة « أوجلة » الواقعة عند حدود برقة من الجنوب ، فان أهلها من البربر ولا يزالون يتكلمون البربرية إلى اليوم.

السامية : فقد احتلت اللغات السامية معظم مناطقها ، ولم يبق الآن من اللغات الكوشيتية إلا بعض لهجات قليلة فى الصومال وفى بلاد الحبشة وفى المناطق المتاخمة لها .

وقد اشتبكت اللغات السامية نفسها فى صراع بعضها مع بعض . وأول صراع حدث بينها كان صراع الآرامية مع اللغات الأكادية والكنعانية ، فقد اشتبكت فى صراع مع الأكادية أولا وقضت عليها فى أوائل القرن الرابع قم . ثم صرعت العبرية فى أواخر القرن الرابع قم . وتغلبت على الفينيقية بآسيا فى القرن الأول قم . والصراع الثانى كان صراع العربية مع أخواتها . فقد اشتبكت فى صراع مع اللغات اليمنية القديمة وقضت عليها قبيل الإسلام ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق متطرفة نائية ساعد انعزالها وانزواؤها على نجاتها ، فظلت محتفظة بلهجاتها القديمة حتى العصر الحاضر . ثم اقتحمت العربية على الآرامية معاقلها فى الشرق والغرب وانتزعتها منها معقلا معقلا حتى تم لها القضاء عليها حوالى القرن الثامن الميلادى . ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق جبلية منعزلة لاتزال تتكلم اللهجة الآرامية إلى العصر الحاضر [١] . وامتد أثر العربية إلى الأمم الآرية والطورانية التى اعتنقت الدين الإسلامى (الفرس ، الهنود ، الأتراك . . . الخ) ، فاحتلت لديها مكانة مقدسة سامية ، وتركت آثاراً عميقة فى كثير من لغاتها ،

---

(١) انظر تفصيل هذه الموضوعات جميعها فى كتابنا « فقه اللغة » .

فاتسعت بذلك مناطق نفوذها حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بسلطانها نحو ثمانمائة مليون من سكان المعمورة[١] .

(١) كان عدد المسلمين فى العالم فى أوائل الستينات حوالى ٥٣٠ مليون فقط ، وكانت نسبتهم إلى مجموعة سكان العالم (البالغ عددهم حينئذ زهاء ٣٥٠٠ مليون) نحو ١٥ ٪ ، ومنهم بأفريقيا نحو ٨٥ مليون (نحو ٤٠٪ من مجموع سكانها) ، وفى آسيا نحو ٤٢٥ مليون (نحو ٢٧٪ من مجموع سكانها) ، وفى أوروبا نحو ٢٢ مليون (نحو ٢ ٪ من مجموع سكانها) وفى الأمريكتين جاليات إسلامية يبلغ عددها زهاء ثلاثة ملايين (واحد وكسور فى المائة من مجموع سكانهما) .

هذا وقد بلغ سكان العالم فى منتصف سنة ١٩٦٩ (٣٥٥٢ مليون نسمة) يعيش نحو ٥٧٪ منهم فى آسيا ، و ٢١٪ منهم فى أوربا والاتحاد السوفيتى ، و ١٤ ٪ فى الأمريكتين ، و ٢٪ منهم فى أفريقيا .

ويتزايد سكان العالم بمقدار ٦٥ مليون سنويا فى المرحلة الحاضرة وهذه النسبة هى أكبر من نسبة تزايدهم فى أية مرحلة أخرى من مراحل تاريخ الإنسان . واذا استمرت الزيادة بهذه النسبة فسيصل عددهم إلى ٤,٣ مليار نسمة قبيل عام ١٩٨٠ ، وسيصل إلى ضعفى عددهم الحالى (أى نحو ٧٠٠٠ مليون) بعد نحو خمسين سنة .

ويعيش نحو ثلثى سكان العالم فى عشر دول . وهى بحسب ترتيبها فى عدد السكان : الصين الشعبية (نحو ٨٥٠ مليون أى نحو ٢٥ ٪ من سكان العالم كله) ، فالهند (نحو ٤٧٥ مليون) ، فالاتحاد السوفييتى (نحو ٢٣٥ مليون) ، فالولايات المتحدة (نحو ٢٠٠ مليون) ، فأندونسيا (نحو ١٠٥ مليون) ، فباكستان (نحو ١٠٤ مليون) ، فاليابان (نحو ١٠٠ مليون) ، فالبرازيل (نحو ٨٠ مليون) ، فألمانيا الغربية (نحو ٥٨ مليون) ، فبريطانيا (نحو ٥٥ مليون) .

وأكثر مناطق العالم فى نمو عدد السكان أمريكا الوسطى ومن بينها منطقة الكاريبى ، إذ تصل هذه الزيادة إلى نحو ٢,٩ ٪ سنويا منذ عام ١٩٥٨ ، وتليها أمريكا الجنوبية ، وتليهما الدول النامية التى تكون مستويات المعيشة فيها منخفضة .

(انظر تقارير الأمم المتحدة ومكتب تعداد السكان عن السنين ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ وانظر جريدة الأهرام فى ٦٤/٨/٥ و ٦٤/١٢/٥) .

— ٤ —

الفصيلة الثالثة : اللغات الطورانية

Langues Touraniennes

أطلق مكس مولر وبونسن Bunsen [١] اسم « اللغـــات الطورانية ، على طائفة من اللغات الأسيوية والأوربية التى لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين ، كالتركية والتركمانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا ؛ وتابعهما فى ذلك كثير ممن جاء بعدهما .

فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة أى مجموعة ترجع إلى أصول واحدة ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة ، بل هى أمشاج من لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية وهى عدم دخولها فى إحدى الفصيلتين السابقتين .— هذا إلى أن القائلين بها لم يدخلوا تحتها جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين المذكورتين ، بل قصروها على طائفة منها وهى بعض اللغات الأسيوية والأوربية .

فهذا قسم غير قائم على أساس وغير شامل لما بقى من لغات العالم .

ولذلك عدل المحدثون من علماء اللغة عن استعمال كلمة

---

(١) انظر الفقرة الأولى من الفصل السادس والتعليق الخاص باللغات الطورانية .

« اللغات الطورانية »[١] ؛ وعمدوا إلى ما بقى من اللغات الإنسانية خارجاً عن الفصيلتين السابقتين فقسموه إلى فصائل يجمع بين أفراد كل فصيلة منها صلات تشابه وقرابة لغوية ، فتتفق فى أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأحدث نظرية بهذا الصدد هى ما ذهبت إليها « جمعية علم اللغة بباريس Société de Linguistique de Paris ، فى موسوعتها « لغات العالم Les Langues du Monde » ، إذ قسمت ، على الأسس السابق ذكرها ، جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين الحامية السامية والهندية الأوربية إلى تسع عشرة فصيلة ، وهى :

١ — فصيلة اللغات اليابانية .

٢ — « فصيلة اللغات الكورية Coréen » (لغات سكان شبه جزيرة كوريا التى كانت تابعة لليابان والواقعة بين بحر اليابان والبحر الأصفر) .

---

(١) ذهب هذا المذهب من القدامى أنفسهم العلامة رينان . فعلى الرغم من موافقته مكس مولر (الذى كان معاصرا له) فى كثير من آرائه ، فإنه قد رفض الأخذ بنظريته بصدد اللغات الطورانية ، ووجه اليها نقدا لاذعا فى كتابه « نشأة اللغة » .

٣ – لغة الأينو La Langue Ainou . – ويتكلم بها الآن نحو ثلاثين ألفاً من سكان جزيرة هوكادو Hokkado وجزيرة ساخالين Sakhaline وجـــزيرة شكوتان Shikotan (وكلها كانت تابعة لليابان ، وتحتل روسيا الآن الجزيرتين الأخيرتين، وأما هوكادو فهى واحدة من أربع جزر تعد الآن أكبر الجزر التى تتألف منها اليابان)[١] .

ولم تثبت صلة قرابة بين هذه اللغة وأية لغة من اللغات الحية ولذلك عدت فصيلة على حدتها .

٤ – « فصيلة اللغات الصينية – التبتية » ، وتشمل اللغات الصينية الأصلية ولهجاتها والتبتية Tibétain ، والبرمانية Birman ، والسيامية Siamois (لغة سيام) .

٥ – « فصيلة اللغات الأسترالية الأسيوية » (التى يتكلم بها القسم الأسيوى الجنوبى المنحدر إلى أستراليا) ، وتطلق على ثلاث شعب : شعبة اللغات الأنامية (لغة سكان أنام من الهند الصينية) ؛ وشعبة اللغات الموندية Langues Mounda أو الكولارية Kolariens (من أقدم لغات الهند ، بل من أقدم اللغات الإنسانية جميعها ، ويتكلم بها الآن نحو مليونى نسمة من الهنود . ومنطقتها فى الجزء الجنوبى من الهند) ؛ وشعبة اللغات المونكهميرية Les Langues

---

(١) والثلاثة الأخرى هى « هوندو » أو « نيبون » وهى الجزيرة الأم ، و « شيكوكو » و « كيوشو » .

Mon-Khmer (ويدخل فيها المنية Le Mon والكهمرية Khmer أو الكمبدجية Cambodgien والتشامية Tcham ويتكلم بهـذه اللهجات بمنطقة أسام Assam وما إليها) .

٦ — فصيلة اللغات الدرافيدية Dravidienne (لغات بعض الشعوب التى تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الآريون ، وتشمل التامولية Tamoul والكانارية Kanarais وغيرهما) .

٧ ، ٨ — اللغات القوقازية (ولا يطلق هذا الاسم فى اصطلاح علماء اللغة على جميع اللغات القوقازية ، بل على مجموعة خاصة منها ، وهى اللغات القوقازية التى ليست سامية ، ولا هندية — أوربية ، ولا أورالية — ألتائية) ، وتشمل فصيلتين لم تثبت بعد صلات القرابة بينهما بشكل قاطع [١] ، ولذلك عددناهما فصيلتين لا فصيلة واحدة ، وهما : « فصيلة اللغات القوقازية الشمالية » وتشمل السامورية Samourien والأرتسيـة Artsi والأديغية Adeghé . . وغيرها) ؛ و « فصيلة اللغات القوقازية الوسطى » (وتشمل الجيورجية Géorgien واللازية Laze . . . وغيرهما).

٩ — « فصيلة اللغات الأسيوية القديمة » Langues propres de l'Asie antérieure ancienne — يطلق هذا الاسم فى عرف علماء اللغة على بعض لغات أسيوية قديمة غير سامية ولا هندية — أوربية

---

(١) V. Langues du Monde p.p. 327 et Suiv.

كان يتكلم ببعضها فى مملكة ميزوبو تاميا Mésopotamie (مملكة قديمة كانت تقع بين دجلة والفرات) وبعضها فى آسيا الصغرى وفى المناطق المتصلة بها من حوض البحر الأبيض المتوسط وفى بعض أجزاء من إيطاليا [١] .

ومن أهم لغات هذه الفصيلة اللغة السومرية Sumérien وهى لغة غير حامية ولا هندية — أوروبية ، كان يتكلم بها شعب مجهول الأصل كان يسكن حوض الفرات الأدنى بقرب خليج فارس ، أى فى المنطقة التى احتلتها فيما بعد الشعوب السامية الأشورية والبابلية ونشرت فيها لغاتها الأكادية (شعبة من اللغات السامية ، وتسمى كذلك شعبة اللغات الأشورية — البابلية) [٢] .

ويرجع الفضل فى الوقوف على اللغة السومرية إلى ما عثر عليه أخيراً من آثارها مكتوباً بالخط المسمارى . وتتألف هذه الآثار من وثائق هامة بعضها أدبى — لغوى (شعر ، قواعد ، بحوث لغوية.. الخ) ، وبعضها علمى (فلك ، طبيعة . . . الخ) ، وبعضها

---

(١) انتقلت هذه اللهجات إلى ايطاليا على أثر هجرة بعض الشعوب اليها من آسيا الصغرى.— وأشهر اللغات الايطالية القديمة التى تعد من هذه الفصيلة هى اللغة الأتروسكية Etrusque التى كان يتكلم بها الاتروسكيون Etrusques أو الرازينيون Rasennes (وهم سكان المنطقة المسماة قديما اتريريا Etrurie) .

(٢) انظر أول الفقرة الثالثة من الفصل السادس ، وانظر تفصيل الكلام فى اللغتين الأكادية والسومرية فى الباب الأول من كتابنا « فقه اللغة » .

اجتماعى – تاريخى (يعرض للشئون الاقتصادية والقضائية والسياسية والإدارية والدينية والأسطورية والتاريخية . . وهلم جرا) .

١٠ – فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية .

١١ – فصيلة اللغات الفينية Finois والأجرية Ougriennes والسامويدية Samoyèdes (ويتكلم بهــذه اللغات فى الحوض الأوسط لنهر الفولجا Volga) . ويدخل فى الفينية اللغات الفنلندية[1]

---

(١) كانت فنلندا منذ القرن الثالث عشر حتى عام ١٨٠٩ جزءا من السويد ، ومن ثم كانت لغتها الرسمية هى السويدية . ثم انتزعتها روسيا القيصرية بعد ذلك من السويد ، فأصبحت لغتها الرسمية هى الروسية . وكما حاول السويديون من قبل محو اللغة الفنلندية كذلك بذل القياصرة الروس أقصى جهودهم لتحويل فنلندا إلى مقاطعة روسية . فصدرت قوانين كثيرة تحرم تدريس اللغة الفنلندية فى مدارس فنلندا وتقضى باصدار جميع الكتب والصحف بالروسية .

وكما بذل الفنلنديون جهودهم للمحافظة على لغتهم منذ القرن الثالث عشر وحمايتها من طغيان لغة السويد ، أخذوا بعد ذلك يواصلون جهودهم لصد غزو اللغة الروسية . وفى عام ١٨٦٣ تكلل كفاحهم بالنجاح عندما أصدر القيصر الروسى الكسندر الثانى اعترافا باللغة الفنلندية كلغة رسمية لأهالى فنلندا .

وعندما استقلت فنلندا عن روسيا فى عام ١٩١٧ كانت دعوة القومية الفنلندية قد بلغت ذروتها . فمضت البلاد بعد استقلالها تحارب كل أثر للغتين السويدية والروسية. وسرعان ما اختفت الروسية لعدم تأصلها فى البلاد ، ولأن استخدامها كلغة رسمية فى فنلندا لم يكد يتجاوز نصف قرن . ولكن السويدية التى كان لها جذور ممتدة إلى أعماق الماضى ، والتى ظل استخدامها فى فنلندا كلغة رسمية زهاء ستة قرون ، بقيت لها آثار كثيرة فى اللغة الفنلندية وفى ألسنة الفنلنديين وفى مكاتباتهم حتى الآن . بل لقد=

والأستونية والبلغارية القديمة [١] وغيرها . — ويدخل فى الأجرية اللغات اللابونية Lapons (لا تزال لهذه اللغات بقايا فى السويد والنرويج وغيرهما) واللغات الهنغارية . . وغيرها . وتتشعب الساموية إلى الأستياكية Ostïaque واليوراكية Youak والتافجوية Tavgui وغيرها .

هذا ، وقد كان القدامى من علماء اللغة يجمعون معظم أفراد الفصيلتين العاشرة والحادية عشرة تحت فصيلة واحدة كانوا يسمونها الأورالية — الألتائية Ouralo - Altaique أو الطورانية — ولكن ظهر للمحدثين فساد هذا المذهب ، وتبين لهم أن كلتا المجموعتين مستقلة عن الأخرى .

١٢ — لغة الباسك Basque أو الأسكارا Euskara ، ويتكلم بها الباسكيون ، وهو شعب يقطن منطقة جبال البرانس الغربية فى العدوتين الإسبانية والفرنسية بمناطق بيسكاى Biscaye والألافا

= أصبحت اللغة السويدية لغة للتخاطب لنحو ٣٠٠ ألف شخص من سكان فنلندا البالغ عددهم ٤ ملايين ونصف مليون .

ولكن الفنلنديين أدركوا أخيرا مزايا تعلم السويدية إلى جانب لغتهم الأصلية ، حتى لا يصبحوا فى عزلة عن السويد وسائر الدول الاسكندينافية ، وأخذت سلطات هيلسنكى الآن تشجع نظام تعليم اللغتين فى مدارسها .

(١) قد انقرضت هذه اللغة وحل محلها لسان صقلبى كما سنذكر ذلك فى الفقرة الثانية من الفصل الثالث ، انظر على الأخص ص ٢١١ من الطبعة السادسة من كتابنا « علم اللغة » .

Alava وجويبوزكوا Guipuzcoa ونافار Navare (بإسبانيا) وبمناطق بيون Bayonne وموليون Mauléon بفرنسا [١].

ويدل الإحصاء الذى عمله لويس — لوسيان بونابرت Louis - Lucien Bonaparte عام ١٨٧٣ أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ نحو ٦٦٠ ألفا فى أسبانيا ونحو ١٤٠ ألفا فى فرنسا. ولكن ليس من شك فى أن منطقة اللغة الباسكية ، وبخاصة منطقتها الإسبانية ، كانت قديماً أوسع كثيراً مما يرشد إليه هذا الإحصاء ؛ وقد ضاقت الآن عما كانت عليه عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والإسبانية على بعض أجزائها ، وخاصة فى إقليم نافار Navare.

هذا ، وقد هاجر إلى أمريكا عقب كشفها بعض أسرات من الباسكين فانتشرت لغتهم فى المناطق التى حلوا بها ، ولا ينفك يتكلم

---

(١) نشر فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١١/٥/١٩٧٠ تحليل اخبارى بقلم أحمد أبو شادى لحركات المعارضة داخل اسبانيا ذكر من بينها معارضة الباسك إذ يقول : « تواجه حكومة فرانكو عدة حركات للمعارضة داخل أسبانيا أكثرها تعصبا حركة الباسك القومية فى مقاطعات شمال شرق أسبانيا على ساحل خليج بيسكاى. وتضم هذه الحركات مئات من الفدائيين الذين قاموا بعدة عمليات تخريب خلال السنوات الماضية من أجل تحقيق مطالب شعب الباسك وهى الاستقلال الذاتى والاعتراف بلغته وتاريخه . ومطالب الباسك بالاستقلال تمتد لمئات السنين فى التاريخ الاسبانى الذى تعرضت خلاله للضغط والتشجيع تبعا لتغير نظم الحكم . وكان آخر مرة حصلوا فيها على استقلالهم مع اعلان الجمهورية عام ١٩٣١ . ولكن فرانكو فرض عليهم سلطة الدولة ومنع استخدام لغة الباسك والاعتراف بقومية خاصة بهم ».

وقد منحوا أخيرا سنة ١٩٨٠ فى العهد الملكى الحالى نوعا من الاستقلال الذاتى.

بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم ، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم .

١٣ — اللغات الهيبربورية Hyperboréennes أو لغات أقصى الشمال ، وهى لغات سيبريا وما إليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية وتشمل هذه الفصيلة : اللغة اليوكاجيرية Youkagir التى يتكلم بها فى القسم الغربى من هذه المنطقة ؛ والتشوكتشية Tchouktche التى يتكلم بها نحو عشرة آلاف يقطنون سيبريا شمال نهر أنادير Anadyre ؛ والكورياكية Koryak التى يتكلم بها فى المنطقة المحصورة بين نهر أنادير وشبه جزيرة كمتشاتكا Kamtchatka ؛ والكمتشادالية التى يتكلم بها نحو ألفين يقطنون شبه جزيرة كمتشاتكا وجزركويل Kouriles ؛ والجيلياكية Guiliak التى يتكلم بها فى شمال جزيرة ساخالين Sakhaline وفى الحـــوض الأدنى لنهر مور Amour .

١٤ — اللغات الملايوية — البولينزية Malayo-Polynésiennes ويتكلم بهذه الفصيلة فى طائفة كبيرة من جزر المحيطين الهندى والهادى تبد شرقاً بجزر مدغشقر (٤٩ درجة طول شرقى باريس) وتنتهى غرباً بجزيرة باك Paques (١١٠ درجة طول غربى باريس) ، وتمتد من درجة عرض ٥٠ جنوب خط الاستواء إلى درجة عرض ٣٠ شمالية . فمنطقة هذه الفصيلة تشغل نحو ٢١٠ درجات طول وثمانين درجة عرض .

وتشمل هذه الفصيلة خمس شعب لغوية وهى :

شعبة اللغات الأندونيسية Andonésiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر أندونيسيا : جزر الفيليبين ، وسيليب ، وبرنيو ، وجاوة ، وسومطرة ، ومادورا ، ومدغشقر . . . الخ .

وشعبة اللغـــات الميلانيزية Mélanésiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر ميلانيزيا (جزر سليمان ، وسانت كروز ، وتوريس ، وهابريد الجديدة . ولويالتى ، وفيدجى . . الخ) .

وشعبة اللغات الميكرونيزية Micronésiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر ميكرونيزيا (جزر جلبرت ، ومرشال ، وكارولين ، وماريان . . . الخ) .

وشعبة اللغـــات البولينيزية Polynésiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر بولينيزيا (جزر ساموا ، وكوك ، وتاهيتى أو جزر الشركة ، وبوموتى ، وتونجا ، ومجناريفا ، وباك ، وزيلندا الجديدة . . الخ) .

وشعبة لغات البابو Langues Papoues ، وهى اللغات التى يتكلم بها فى غينا الجديدة Nouvelle Guinée والجزر المجاورة لها .

١٥ ــ لغات سكان أستراليا الأصليين .

١٦ ــ اللغات الأمريكية . ويتكلم بها سكان أمريكا الأصليون

(الهنود الحمر ومن إليهم) . — وكان يبلغ عددهم حينما كشفت أمريكا حوالى ٤٠ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد تقريباً فى كل كيلو متر مربع) ثم أخذ عددهم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى هبط فى أوائل القرن العشرين إلى حوالى ١٥,٥ مليوناً (أى بنسبة ساكن واحد فى كل ٢,٥ كيلو متر مربع) منهم نحو نصف مليون فى الولايات المتحدة وجرونلاند ، ونحو ٦,٥ مليون فى المكسيك وأمريكا الوسطى (هوندارس ، وكوستاريسا، وبنما ، ونيكاراجا ، وجواتيمالا ، وسلفادور) ، ونحو ٨,٥ مليوناً بأمريكا الجنوبية .

وقد كان لتخلخل السكان فى هذه المنطقة أثر كبير فى تعدد لغاتها . فقد بلغت ، حسب إحصاء العلامة ريفيه Rivet [1] ، ١٢٣ شعبة : منها ٢٦ بأمريكا الشمالية ؛ ٢٠ بأمريكا الوسطى ؛ و٧٧ بأمريكا الجنوبية .

ومن أشهرها بأمريكا الشمالية لغات الإيروكوين Iroquois ، والألجنكوين Algonkins ، والإسكيمو Esquimaux ، والسيو Siou وبأمريكا الوسطى لغات الأموسجو Amosgo ، والكويكاتك Kuikatek ، واللنكا Lenca ، والميا Maya ، والميسكيتو Miskito ، وبأمريكا الجنوبية لغات الألاكالوف Alakaluf ، والأوركان Aroukan ، والأراواك Arawak والأتاكاما Atakama ، والكاريب Karib ، والإيتوناما Itonama .

(١) V. Rivet, dans : Les Langues du Monde p.p. 597-713.

هذا ، ولم تظهر بعد بشكل قاطع صلة قرابة لغوية أو صفة مشتركة تربط هذه الشعب بعضها ببعض . فالفصيلة التى نحن بصدد الكلام عنها هى إلى الفصيلة الجغرافية أدنى منها إلى الفصيلة اللغوية .

١٧ — لغات السودان وغانة[١] . وهى لغات غير سامية ولا حامية تتكلم بها جماعات كثيرة من زنوج السودان وسكان غانة . وقد قسمها العلامة موريس ديلافوس Maurice Delafosse إلى ٤٣٥ لغـــة ترجع إلى ست عشرة شعبة [٢] : منها الشعبة النيلية التشادية Nilo - Tchadien (يتكلم بها فى المنطقة المحصورة بين أسوان شمالا وفاشودة جنوباً ، وتشتمل على ثلاثين لغة من أشهرها لغات النوبة ، والباريا ، والتوبو ، والميمى ، والكوناما . . . الخ) ، وشعبة اللغات النيلية — الأبيسينية (يتكلم بها فى الحوض الأوسط للنيل الأزرق وفى حوض النيل الأبيض وبحر الجبل ، وتشتمل على خمس عشرة لغة من أشهرها لغات الشيلوك ، والدنكا ، والديور ، والجاميلا ، والدوكو . . الخ) وشعبة اللغات النيلية — الاستوائية (يتكلم بها فى جنوب المنطقة السابقة ، وتشتمل على ست وعشرين لغة من أشهرها لغات البارى ، واللاتوكا ، واللبرى ، والكافيروندو ،

---

(١) هى الجزء الغربى من أفريقيا المحصور بين سنغمبيا شمالا والكنغو جنوبا والواقع على ساحل خليج غانة .

(٢) V. Maurice Delafoss : dans Les Langues du Monde p.p. 463 - 561.

والتاتورو . . الخ) ؛ وشعبة لغات كردفان (يتكلم بها فى منطقة كردفان ، وتشتمل على عشر لغات منها لغات التالورى ، واللافوفا ، والتومتوم ، والكاندرما . . . الخ) : وشعبة اللغات النيلية — الكونغوية ، وشعبة اللغات البنغالية — الغانية . . . وهلم جرا .

١٨ — اللغات البنطوية Langues Bantou ويتكلم بها سكان القسم الجنوبى من أفريقيا فى منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجاء الصالح ، ويمتد ضلعه الأيمن على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى بلاد الصومال [١] ، وضلعه الأيسر على الساحل الغربى حتّى مدينة دوالا Douala ببلاد الكمرون [٢] ، وتتجه قاعدته من بلاد الصومال إلى المحيط الأطلانطيق مارة شمال أوغندة والكونغو . وكل الشعوب التى تقطن هذا المثلث تتكلم البنطوية ما عدا قبائل الهوتنتوب والبوشيمان والنجريين التى سيأتى ذكرها فى الفصيلة التاسعة عشرة .

وتشتمل هذه الفصيلة على لغات كثيرة من أشهرها لغات السوثو Sotho ، والسواحلى Swahili ، والدوالا Douala ، والجندا Ganda والجالو Galoa والتونجا Tonga والزولو

---

(١) الغاية هنا خارجة . فلغات الصومال من الشعبة الكوشيتية (احدى شعب الفصيلة السامية — الحامية) كما تقدم .

(٢) الغاية هنا داخلة ، فلغة دوالا من أهم لغات هذه الفصيلة .

Zoulou (وهى التى يتكلم بها قبائل الزولو) [١] .

هذا ، وقد كان العرب على اتصال بأهل زنجبار منذ عصور سحيقة ، ولذلك عنوا بدراسة لغتهم (المسماة السواحلية Swahili) ودونوها بحروف عربية . وعن طريقهم وصلنا كثير من تفاصيل هذه اللهجة . أما اللغات الأخرى من هذه الفصيلة فقد عنى بدراستها كثير من أعضاء الإرساليات الدينية فى هذه المنطقة ، ودونوها بحروف لاتينية مع بعض علامات لتميز الأصوات الخاصة بها [٢] .

١٩ — لغات البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين Boschimans Hottentotes, Négrilles وهى من القبائل الأفريقية الجنوبية : تقطن أولاها الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية ، ولا يتجاوز

---

(١) ينحدر الزولو من قبيلة الكافر الأفريقية ، ولا يتجاوز عددهم فى الوقت الراهن ٢٤٥ ألفا يسكنون بقرى الناتال . وتعد مدينة دربان (أنشئت سنة ١٨٢٤ وسميت باسم السير بنيامين دربان حاكم مستعمرة الكاب فى ذلك العهد) عاصمة بلادهم ، ويسكنها أكثر من ستين ألفا منهم . وهم قوم أولو بأس وشدة وشجاعة نادرة فى القتال . ولم ينفكوا يقاتلون المستعمرين من البوير والهولنديين والانجليز ويدافعون عن استقلال بلادهم حتى غلبوا على أمرهم سنة ١٨٨٣ وضمت بريطانيا بلادهم رسميا إلى ممتلكاتها فى أفريقيا .

(انظر ما نشره فى هذا الصدد الأستاذ منصور جاب الله فى جريدة الأهرام فى ١٩٤٩/١/٢٣) — وانظر كذلك :

Homburger, dans : Les Langues du Monde, p. 583.

(٢) انظر فى هذه الفصيلة

Homburger, dans : Les Langues du Monde, pp. 561-591.

عدد أفرادها الآن خمسين ألفاً ، وتقطن ثانيتها منطقة محصورة بين خط عرض ٢٤ جنوب خط الاستواء والحوض الأدنى لنهر الأورانج وبعض أجزاء من مستعمرة الكاب ، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن ربع مليون معظمهم من عشائر الناما Nama [١] ، وتتألف ثالثتها من أقزام يقطنون الغابات الاستوائية .

هذا ولما كانت هذه الفصائل ممثلة للقسم البدائي أو الذى وقف نموه من لغات بنى الإنسان ، فأهميتها النسبية أقل كثيراً من أهمية الفصيلتين السابقتين (الهندية — الأوربية ، والحامية — السامية) ، ولما كان المقام ، من جهة أخرى ، لا يتسع فى عجالة كهذه للكلام عنها وعن خصائص كل منها[٢] ؛ ولأن الباحثين ، من جهة ثالثة ، لم يصلوا بعد فى دراسة معظمها إلى نتائج ذات بال ؛ لهذا كله آثرنا أن نقتصر على ما سبق ذكره بصددها ، ونقف الجزء الباقى من هذا الباب على تكملة البحث فى الفصيلتين الهندية الأوربية والحامية — السامية .

---

(١) كانت عشائر الهوتنتوت تقطن قديما منطقة واسعة جنوب نهر زمبيزى ، ثم أخذت هذه المنطقة تضيق شيئاً فشيئاً تحت تأثير غارات البنطويين من الشمال والأوروبيين من الجنوب حتى انحصرت فى الحدود التى وصفناها .

(٢) حاولت جمعية علم اللغة بباريس Société de Linguistique de Paris تحت إشراف الأستاذين مييه Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen أن تعرض فى كتابها «لغات العالم Les Langues du Monde» بحثا موجزا فى هذه الفصائل التسع عشرة فاستغرق بحثها هذا نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير (من ١٥٣–٧١٣) . وقد اشترك فى تحريره طائفة من أئمة الاخصائيين فى هذه اللغات .

الفصل السابع

بعض ما تختلف فيه الفصيلتان
السامية والهندية — الأوربية

تمتاز كل فصيلة من هاتين الفصيلتين عن الأخرى بخواص كثيرة من أهمها ما يلى[1] :

١ — تتألف أصول الكلمات فى اللغات السامية فى الغالب من ثلاثة أصوات ساكنة (أحرف ساكنة[2]) مختلفة . فنى اللغة العربية مثلا ترجع جميع الكلمات التى فيها معنى القتل إلى أصل ثلاثى مؤلف من ثلاثة أصوات ساكنة مختلفة هى ق ت ل — ولا

---

(١) وقف العلماء على هذا الموضوع مجلدات ضخمة ، من أحسنها وأقربها مأخذا فى اللغات الهندية—الأوروبية كتاب الأستاذ مييه Meillet : Introduction à l'étude comparative des Langues Indo - Européennes ويقع فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وفى اللغات السامية كتاب العلامة رينان Renan : Histoire générale des Langues Sémitiques ويقع كذلك فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير . وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس للفصيلتين معا فى كتابها « لغات العالم » فى نحو مائة وخمسين صفحة (١ — ١٥٣) .

(٢) الحرف هو ما يرمز إلى الصوت فى الكتابة . فاستعمال كلمة أصوات فى هذا المقام أدق من استعمال كلمة حروف ، ونريد بالساكنة ما يقابل اللينة .

يشذ عن هذه القاعدة إلا بعض الحروف والضمائر وبعض أسماء الشرط والموصول وقليل من أسماء الذوات (يد ، دم . .) ومن الأفعال (قال ، عدّ ، تمّ ، ردّ[1]) .

وهذه الأصول لا توجد مستقلة فى اللغات السامية . فالأصل الدال على معنى القتل فى اللغة العربية مثلا وهو قْ تْ لْ لا يوجد مستقلا فى هذه اللغة ، بل لا يمكن النطق به .

والأصوات التى يتألف منها أصل ما توجد مرتبة ، حسب ترتيبها فى هذا الأصل ، فى جميع الكلمات المشتملة على معناه العام . فالأصوات الثلاثة ق ت ل التى يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل ، توجد مرتبة بالشكل السابق فى جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى : قتل ، قاتل ، قتال ، قتيل . . الخ .

واشتمال الكلمة على أصوات أصل ما لا يدل على أكثر من تضمنها للمعنى العام لهذا الأصل .

أما ما عدا المعنى العام فيشار إليه بأصوات مد طويلة (ألف ، ياء ، واو . . . الخ) أو قصيرة (فتحة ، كسرة ، ضمة) تلحق

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى مقدمة كتابنا « فقه اللغة » . هذا ، وأما الكلمات التى تبدو رباعية الأصول فى العبرية والعربية فهى متفرعة فى الحقيقة عن أصول ثلاثية (دحرج مثلا متفرعة عن درج ، على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصلية) .

جميع أصوات الأصل أو بعضها . فنوع الكلمة (كونها اسماً أو فعلا أو حرفاً ، اسم فاعل أو اسم مفعول ، متعدية أو لازمة ، مفردة أو مثنى أو جمعاً . . الخ) وزمنها (حدث معناها فى الماضى أو يحدث فى الحال أو فى الاستقبال) ووظيفتها فى الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافاً إليه أو حالا أو تمييزاً . . . الخ) . . . كل ذلك وما إليه تدل عليه فى اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . وأصوات المد الطويلة هى التى يرمز إليها بحروف المد الثلاثة الألف والياء والواو ، وحروف المد القصيرة هى التى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة . فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام فى « قتل المجرم » مثلا ، تدل الكلمة على فعل قتل حدث فى زمن مضى ومسند للمفعول . وبمد القاف بالألف وكسر التاء وإبقاء اللام ساكنة فى « قاتل الذى يقاتلك » ، تدل الكلمة عن أمر المخاطب بإجراء القتل فى صورة متبادلة مع غيره . وبفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام فى « هذا دم القتيل » . تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب (مضاف) إلى شيء آخر . وبفتح القاف وإبقاء التاء ساكنة ومد اللام بالألف فى « هؤلاء قتلى الحرب » تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل . . . . وهلم جرا .

وقد يصحب هذا أحياناً أصوات ساكنة جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معان خاصة فى

الكلمة . فبزيادة ميم محركة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة في نهاية الكلمة، مع إبقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام في « أصاب مقتلا) (مقتلن) » تدل الكلمة على عضو نكرة تؤدي إصابته إلى القتل وقد وقع عليه الفعل المعبر عنه في الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونون مفتوحة في آخر الكلمة ، مع إبقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو في « القوم يقتتلون »تدل الكلمة على فعل يحدث في الحال أو في الاستقبال في صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور الآدميين .

ومما تقدم يتضح أن للأصوات الساكنة (ونعني بها ماعدا أصوات المد) في اللغات السامية أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات المد . فالمعنى الأساسي للكلمة يشار إليه غالباً بالأصوات الساكنة ، أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة . هذا إلى أن الأصوات الساكنة تنال في اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم ، وهي لذلك أوضح في الجرس من أصوات المد وأظهر منها في السمع . وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة في الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه . فأهم ما يعني الرسم السامي بإظهاره هي الأصوات الساكنة ، أما أصوات المد فيغفل بعضها إغفالا تاماً ، ويشير إلى بعضها بالشكل ، ويرسم بعضها رسماً مضطرباً غير دقيق . وهذا في الرسم الحديث . أما الأشكال القديمة للرسم السامي فكانت تغفل جميع أصوات المد .

أما اللغات الهندية — الأوربية فتختلف عن اللغات السامية الحامية فيما يتعلق بأصول الكلمات من أربعة وجوه . أحدها أن أصول الكلمات الهندية — الأوربية ليست متحدة فى عدد أصواتها كما هو شأن الأصول السامية بل تختلف فى ذلك اختلافاً كبيراً : فمنها الثنائى ومنها الثلاثى ومنها الرباعى . . وهلم جرا . وثانيها أن أصول الكلمات الهندية — الأوربية ليست مؤلفة من أصوات ساكنة فحسب كما هو شأن الأصول السامية ، بل تختلط فيها الأصوات الساكنة باللينية . وثالثها أن أهمية الأصوات الساكنة لا تزيد فى اللغات الهندية — الأوربية عن أهمية الأصوات اللينة لا فى الدلالة ولا فى النطق ولا فى الرسم كما هو الشأن فى اللغات السامية . ورابعها أن الأصل الدال على المعنى العام للكلمة هو نفسه بمنزلة كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة[١] . وقد يتحقق أحياناً هذا الفصل فى الواقع فيبقى الأصل فى الكلمة مجرد من كل عنصر آخر[٢] . — على أنه فى حكم الثابت أن جميع أصول الكلمات الهندية — الأوربية كانت فى عصورها الأولى — إذ كانت اللغة غير متصرفة[٣] — تستخدم وحدها عارية من كل زيادة[٤] .

---

(١) V. Renan ; Langues Sémitiques 455 et suiv ; Meillet : Introduction ...etc. 115-222.

(٢) Meillet, op. cit. 120.

(٣) انظر معنى هذه الكلمة فى أواخر الفصل الخامس من هذا الباب .

(٤) Meillet, op. cit 119 - 120.

ويشير الأصل فى الكلمة الهندية — الأوربية إلى معناها العام . أما ما عدا ذلك ، فيشار إليه بالعلامات الآتية [١] :

(ا) أصوات تلحق الأصل فتدل على نوع الكلمة (كونها اسماً أو فعلا أو حرفاً اسم فاعل أو مفعول . . . الخ) وتسمى هذه الأصوات باللاحقة Suffixe . وأصل الكلمة مع لاحقتها يسميان مادة الكلمة Thème .

وقد يتصل بالأصل أكثر من لاحقة واحدة للدلالة على عدة معان فى الكلمة من هذا القبيل . وقد تعرو الكلمة من اللواحق ؛ ولكن تجردها منها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها .

(ب) أصوات تأتى عقب اللاحقة فتحتم بها الكلمة لتعيين وظيفتها فى الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافاً إليه . . . الخ) وزمنها (ماضياً أومضارعاً . . . الخ) ونوع إسنادها (كونها مسندة إلى المتكلم أو المخاطب أو الغائب . . . الخ) ودلالتها على مذكر أو مؤنث ، مفرد أو مثنى أو جمع . . وهلم جرا ، وتسمى هذه الأصوات بالخاتمة Désinence [٢] .

---

(١) انظر فى هذه العلامات وما يتصل بها

Meillet, op. cit. 115-122.

(٢) ليست كلمة « الخاتمة » بترجمة لكلمة Désinence ، بل هى كلمة من اصطلاحنا نحن لتسهيل التسمية .

ولا يلحق الأصل أكثر من خاتمة واحدة . وقد تتجرد الكلمة من « الخواتم » ، ولكن تجردها يشير هو نفسه إلى معنى خاص فيها . فتجرد الفعل مثلا من الخاتمة يدل ، فى بعض اللغات الهندية — الأوربية (ومنها الانجليزية والفرنسية) على أمر مسند للمفرد المخاطب Aime, Love .

وقد تتجرد الكلمات من اللاحقة والخاتمة فيبقى الأصل عارياً من كل زيادة . ولكن تجرده هذا يدل هو نفسه على معنى خاص به.

(ج) أصوات تسبق الأصل فتلصق بالكلمة فى مبدئها للدلالة على معان من نوع المعانى التى تدل عليها الأصوات اللاحقة السابق ذكرها . تسمى هذه الأصوات « بالسابقة » Préfixe .

(د) أصوات لين طويلة أوقصيرة a, e, é, é,ê, i, o, ô, y, oi, ei, eau, ui . . etc. ، تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها على نحو ما تقدم شرحه فى اللغات السامية .

(ه) شكل النطق بمختلف أجزاء الكلمة . فى بعض اللغات الهندية — الأوروبية يتغير معنى الكلمة بتغير طريقة النطق بأجزائها . ففى الإنجليزية مثلا تتردد بعض الكلمات بين الاسمية والفعلية تبعاً لطريقة النطق بها : فإذا ضغط فى النطق على جزئها الأول كانت اسماً ، وإذا ضغط على جزئها الأخير كانت فعلا :

The <u>ob</u>ject of our book is . . ; I ob<u>ject</u> against this theory.

(و) موقع الكلمة فى الجملة . فنى بعض اللغات الهندية — الأوروبية لا يتميز الفاعل من المفعول إلا بتقديمه فى الجملة
Pierre bat Paul

* * *

وتختلف اللغات الهندية — الأوروبية فى مبلغ استخدامها لهذه العلامات الست . فمن اللغات الهندية — الأوربية ما يستخدم جميع هذه العلامات ؛ ومنها مالا يستخدم إلا بعضها ، ومنها ما يستخدم بعضها بكثرة ولا يلجأ لبعضها الآخر إلا نادراً . وإليك مثلا العلامات التى سميناها « السابقة » (رقم حـ) ؛ فهى لا توجد فى كثير من اللغات الهندية — الأوروبية القديمة ، على حين أنها تكثر فى الحديثة منها كالإنجليزية والفرنسية وما إليهما .(Understand, Comprendre . . etc)

* * *

٢ — لا تكاد توجد فى اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ؛ على حين أن هذا النوع يكثر فى اللغات الهندية — الأوروبية وبخاصة الحديث منها ، وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معانى الأصول التى تشتمل عليها[١] .

---

(١) توجد هذه الظاهرة فى اللغات السامية فى بعض كلمات قليلة معظمها حديث النشأة ، ومن ذلك ما يسمونه بالكلمات المنحوتة : تلاشى (أصبح لا شىء) حمدل (قال الحمد لله) بسمل (قال بسم الله) طلبق (قال أطال الله بقاءك) . . . الخ . — انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « فقه اللغة » صفحة ١٨٠ وتوابعها (الطبعة السادسة).

٣ — ليس للفعل فى معظم اللغات السامية إلا زمنان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (مضارع للحال أو الاستقبال وأمر)[1] ، على حين أن له فى اللغات الهندية — الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة : الماضى القريب ، الماضى البعيد ، الماضى الكامل ، الماضى المتصل بالحاضر ، الحاضر ، المستقبل . . الخ . وقد بلغت هذه الأزمنة فى اللغة الفرنسية أحد عشر فى الجمل الإخبارية وحدها .

Je parle ; je parlais ; je parlai ; j'ai parlé ;
j'eu parlé ; j'avais parlé ; j'ai eu parlé ; j'avais eu parlé ;
je parlerai ; j'aurai parlé ; j'aurais eu parlé.

٤ — يحدث فى الغالب تأنيث الاسم والصفة فى اللغات السامية والحامية بإضافة تاء إلى المذكر . أما فى اللغات الهندية — الأوربية فللتأنيث طرق أخرى كثيرة : منها تضعيف الحرف الأخير للمذكر (chat, te ; gras, se) ومنها استبدال حرف آخر به (loup, ve ; neuf, ve) ومنها استبدال عدد من الأحرف الأخيرة فى المؤنث بعدد من الأحرف الأخيرة فى المذكر (instituteur, trice ; pêcheur, chresse) ومنها مد الحرف الأخير فى المذكر (berger, ère ; fermier, ière) ومنها زيادة بعض حروف على المذكر (tigre, resse ; comte, tesse)

---

(١) يستثنى من ذلك اللغات الأكادية فان للفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمنان يشار اليهما بأصوات تلحق أول الفعل ، وهما الزمن الماضى التام والزمن المضارع للاستقبال ، وزمن ثالث يشار اليه بملحق فى آخر الفعل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (انظر ص ٢٥ من كتابنا « فقه اللغة » الطبعة السادسة)

٥ — يميل الأسلوب كثيراً فى اللغات السامية — وبخاصة الأسلوب الأدبى — إلى استخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الاستعارة والمجاز المرسل والكناية وما إلى ذلك . أما أساليب اللغات الهندية — الأوروبية فيبلو فيها الحرص على استخدام الكلمات فى معناها الأصلى .

* * *

هذا ، وقد اعتمدنا فى التفرقة بين هاتين الفصيلتين على أمور تتصل بالقواعد لا بالمفردات .

وذلك لأن ناحية القواعد هى أهم ما تمتاز به الفصائل بعضها عن بعض . فمنها تتكون شخصية اللغات وإليها ترجع مقوماتها ، وهى التى تمثل المظهر الثابت المستقر فى اللغات : فهى لا تكاد تتغير ، وما يحدث فيها أحياناً من تغير يجرى دائماً ببطء وفى نطاق ضيق . وهى ، إلى هذا كله ، لا تنتقل بطريق الاقتباس أو غيره من لغة إلى أخرى [١] . فتشابه لغتين فى القواعد يدل إذن على انتمائهما إلى فصيلة واحدة ؛ واختلافهما يدل على اختلاف فصيلتيهما .

---

(١) عرضنا لهذا الموضوع بتفصيل فى فصل صراع اللغات من كتابنا « علم اللغة » وذكرنا أن القواعد إذا انتقلت من لغة إلى أخرى كان انتقالها ايذانا بزوال اللغة التى انتقلت اليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها ، وأن هذا يحدث حينما تشتبك لغتان فى صراع ويكتب لاحداهما النصر (انظر على الأخص صفحة ٢١٦ من كتابنا « علم اللغة » الطبعة السادسة) .

على حين أن المفردات تمثل المظهر المتقلب والناحية المتنقلة فى اللغات . فهى محاطة بعوامل كثيرة تحول دون ثباتها وتجعلها عرضة للتغير المطرد والتطور السريع ، وتذلل لها وسائل الانتقال من لغة إلى لغة . فتشابه لغتين فى مفرداتهما لا يدل على انتمائهما إلى فصيلة واحدة ؛ فقد تكونان من فصيلتين مختلفتين ويكون السبب فى هذا التشابه راجعاً إلى أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها عن الأخرى . واختلاف لغتين فى مفرداتهما لا يدل على اختلاف فصيلتيهما ؛ فقد تكونان من فصيلة واحدة ويكون السبب فى هذا الاختلاف راجعاً إلى أن مفردات كل منهما قد سلكت فى تطورها طريقاً يختلف عن الطريق الذى سلكته مفردات الأخرى لاختلافهما فى المؤثرات المحيطة بهما ، أو أن إحداهما قد اقتبست مفرداتها من لغة ثالثة لا تربطها بها لحمة قرابة فبعدت فى هذه الناحية عن فصيلتها .

فاللغة السريانية مثلا تعد من فصيلة اللغات السامية ، مع أن قسماً كبيراً من مفرداتها يتحد مع مفردات اللغة الإغريقية التى تعد من أفراد الهندية — الأوروبية . وذلك لأن قواعد الأولى قواعد سامية ، وقواعد الثانية هندية — أوروبية . وتشابههما فى المفردات نشأ عن مجرد اقتباس الأولى عن الثانية لما كان يعوزها من كلمات .—

واللغة التركية تتفق فى قسم كبير من مفرداتها مع الفارسية والعربية ، مع أن كل لغة من هذه اللغات الثلاث تعد من فصيلة خاصة . فالتركية من الفصيلة التترية ، والفارسية من الهندية — الأوروبية ، والعربية من السامية . وذلك لاحتفاظ كل منها بقواعد فصيلتها . أما تشابهها فى المفردات فقد نشأ عن مجرد انتقال طائفة من كلمات اللغتين الثانية والثالثة إلى اللغة الأولى عن طريق الاقتباس . وعلى هذا الأساس عدت الفارسية الحديثة من فصيلة اللغات الهندية — الأوروبية على الرغم من اتفاقها فى كثير من المفردات مع اللغة العربية التى تعد من فصيلة اللغات السامية .

الفصل الثامن

وجوه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية — والأوروبية

ترى طائفة من العلماء أن هاتين الفصيلتين ، مع اختلافهما فى القواعد ، تتفقان فى كثير من أصول الكلمات ، ومن أشهر أفراد هذه الطائفة الأساتذة كلابروث وبوب وهمبلت وإوالد وبنفى ولاسن وبوت وكيل وبونسن وليبسيوس وفورست وديليتزش[1] .

Klaproth, Bopp, Humboldt, Ewald, Benfy, Lassen, Pott, Keil, Bunsen, Lepsius, Fürst, Delitsch.

وقد أوغل كثيراً فى هذه السبيل الأستاذان فورست وديليتزش ، فلم يغادرا أصلا من أصول الفصيلة السامية إلا كشفا عما يشبهه صوتاً ودلالة من أصول الفصيلة الهندية — الأوروبية .

أما تعليل هذه الظاهرة فقد انقسم هؤلاء العلماء بصدده إلى ثلاث فرق : ففريق يعللها بأن احدى الفصيلتين قد انشعبت عن الأخرى وظلت محتفظة بأصول مفرداتها ، ولكنها سلكت فى تكوين قواعدها وجهة تختلف عن وجهة أصلها ، فأخذت تبعد

(١) من بين هؤلاء من كشف عن وجوه الشبه بين جميع أفراد الفصيلة الأولى وجميع أفراد الفصيلة الثانية ، ومنهم من كشف عن وجوه الشبه بين بعض لغات الفصيلة الأولى وبعض لغات الفصيلة الثانية ، كالعلامة ليبسيوس الذى كشف عما تتفق فيه أصول الكلمات السنسكريتيه مع أصول الكلمات العبرية .

عنه فى هذه الناحية شيئاً فشيئاً حتى وصل الخلاف بينهما إلى الحد الذى هما عليه الآن . وفريق يذهب إلى أنهما قد تفرعتا عن لغة دثرت ولم يصل إلينا شىء من آثارها ، وأن هذه اللغة كانت متصرفة[١] ذات قواعد كاملة التكوين ، وأن قواعد كل فصيلة منهما قد سلكت فى تطورها طريقاً يختلف عن طريق الأخرى . ولكن كلتيهما ظلت محتفظة بأصول مفردات اللغة التى انشعبتا عنها . وفريق ثالث يرى أن الشعب الذى تفرع عنه الساميون والآريون كان له فى الأصل لغة مشتركة ، وأن انقسامه إلى هاتين الشعبتين قد حدث ولغته فى الدور الأول من أدوار تكونها ، إذ لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة اللغات العازلة[٢] العارية من القواعد ، وأن كل شعبة منهما ، تحت تأثير عقليتها الخاصة وما كان يكتنفها من شؤن طبيعية واجتماعية ، قد اتجهت فى تكملة لغتها وتكوين قواعدها منحى يختلف عن المنحى الذى اتجهت إليه الشعبة الأخرى ، ولكن بقى فى مفردات كلتيهما كثير من آثار الأصل المشترك[٣] .

(١) انظر معنى هذه الكلمة فى آخر الفصل الخامس من هذا الباب .

(٢) انظر معنى هذه الكلمة فى آخر الفصل الخامس من هذا الباب .

(٣) نشر الشيخ محمد أحمد مظهر فى « مجـلة الديانات » «The Review of Religions» التى تصدرها باللغة الانجليزية جماعة الأحمدية القاديانية فىباكستان الغربية ، بحثا بعنوان « اللغة العربية هى أم اللغات جميعا » . وقد بسط نظريته وأدلتها فى عشر مقالات نشرت فىهذه المجلة فىأعدادها الشهرية الصادرة قبل نوفبر سنة =

غير أن أساس النظرية نفسه ، وهو اتفاق الفصيلتين فى أصول المفردات اتفاقاً يدل على انشعاب إحداهما عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل واحد قريب غير مسلم به من جمهرة المحققين من علماء اللغة . وذلك لأن القائلين بهذه النظرية لم يقدموا على صحتها دليلا يعتد به . فليس من بين وجوه الشبه التى كشفوا عنها بين هاتين الفصيلتين ما ينهض دليلا قاطعاً على صحة نظريتهم ؛ بل إن كثيراً منها لينم على ضعفها وبطلانها . فمن ذلك مثلا ما اعتمد عليه بهذا الصدد الألمانيان فورست وديليتزش . فقد ذهبا إلى أن أصول الكلمات السامية كانت قديماً مؤلفة من حرفين اثنين ثم زيد فيما بعد على كل أصل منها حرف ثالث [١] . وعلى أساس هذا المذهب — الذى لا يؤيده أى دليل قاطع بل قامت أدلة قوية على بطلانه — تحايلا على التقريب بين الأصول السامية والأصول الهندية — الأوروبية . فاختارا لكل أصل سامى كلمة هندية — أوروبية تقرب منه فى أصواتها ودلالتها . وقررا تفرعهما عن أصل واحد . ولإثبات

= ١٩٦٠ . ثم أخذ يستعرض أصول طائفة من اللغات الحية والميتة مبينا انشعابها من أصول اللغة العربية . فطبق نظريته على اللغة السنسيكريتية فى عدد نوفبر سنة ١٩٦٠ ، وعلى اللغة الانجليزية فى عدد ديسمبر سنة ١٩٦٠ . وتقوم نظريته على الأساس نفسه الذى تقوم عليه النظريات التى نحن بصدد مناقشتها .

(١) وقد قال بهذا من قبلهما الأستاذ جيزينيوس Gesenius — انظر فيما يتعلق بأصول الكلمات السامية وأصول الكلمات الهندية — الأوروبية الفصل السابع من هذا الباب .

ذلك يختاران حرفين تشترك فيهما الكلمتان ، ويقرران أن الأصل السامى كان يتألف قديماً من هذين الحرفين وحدهما ثم زيد عليهما فيما بعد حرف ثالث ، وأن هذا الأصل الثنائى نفسه هو الذى جاءت منه الكلمة الهندية — الأوروبية . ولا يخفى ما فى هذه الطريقة الاستدلالية من تحكم وتخمين ومجافاة للروح العلمى ومناهج البحث الصحيح[١] . — ومن ذلك أيضاً ما ذهب إليه ديليتزش بصدد التشابه بين طائفة من مفردات اللغة العبرية من جهة وطائفة من مفردات اللغتين الإغريقية واللاتينية من جهة أخرى . فقد اتخذ من هذا التشابه دليلا على صحة النظرية التى نحن بصدد مناقشتها ، غافلا عن أن العبرية الحديثة قد اقتبست كثيراً من مفردات الإغريقية واللاتينية . ومن الغريب أن الكلمات التى ذكرها للاستدلال على مذهبه هى ذاتها من أشهر ما اقتبسته العبرية الحديثة من هاتين اللغتين . — وآخرون من المؤيدين لهذه النظرية يعتمدون فى إثبات التشابه بين مفردات الفصيلتين السامية والهندية — الأوروبية على كلمات تكاد تتفق فى جميع اللغات لانحدارها من الأصل الأول الذى نشأت منه اللغة الإنسانية ، وهو أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التى تحدثها الأفعال وأصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات وما إلى ذلك . وغنى عن البيان أن كلمات هذا

---

(١) انظر فى الرد على هذه النظرية

Renan : Langues sémitiques, 448 et suiv.

شأنها لا تدل على ما يذهب إليه أصحاب هذه النظرية من انشعاب إحدى الفصيلتين عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل قريب . — وبعض المؤيدين لهذه النظرية يعتمد فى إثبات القرابة بين الفصيلتين على وجوه شبه بعيدة بين مفرداتهما أو على تقارب جاء عن طريق الصدفة والاتفاق . — وقصارى القول : لانكاد نجد من بين الأدلة التى اعتمد عليها أصحاب هذه النظرية ما يستحق المناقشة ، فضلا عن أن ينهض حجة قاطعة على صحتها .

الفصل التاسع

تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات

يرجع السبب الرئيسى فى هذا التفرع إلى انتشار اللغة فى مناطق مختلفة واسعة ، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس .

ولكن هذا السبب الرئيسى لا يؤدى عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى إلى هذه النتيجة .

وتبدو هذه النتيجة فى صورتين : إحداهما انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية » Dialectes locaux يتكلم بكل لهجة منها منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة ؛ وثانيتهما انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية » Dialectes sociaux تتكلم بكل لهجة منها طبقة خاصة من طبقات السكان .

وسنقف الفقرة الأولى من هذا الفصل على دراسة السبب الرئيسى فى التفرع وهو انتشار اللغة .

ونقف الفقرة الثانية على دراسة العوامل التى يتيحها السبب الرئيسى السابق ، وتؤدى عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

ونقف الفقرتين الثالثة والرابعة على دراسة الصورة الأولى من صور هذا التفرع وهى التى تتمثل فى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية » ، والفقرتين الخامسة والسادسة على دراسة الصورة الثانية من صور هذا التفرع وهى التى تتمثل فى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية » .

— ١ —

انتشار اللغة وأسبابه
وأثره الرئيسى فى التفرع اللغوى

تختلف اللغات الإنسانية فى مبلغ انتشارها اختلافاً كبيراً . فمنها ما تتاح له فرص مواتية ، فينتشر فى مناطق واسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية ، كما حدث للاتينية والعربية فى العصور القديمة والوسطى ، والإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية فى العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك فيقضى عليه أن يظل حبيساً فى منطقة ضيقة من الأرض وفئة قليلة من الناس ، كما حدث للأينو [١] والبسكية [٢]

(١) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفا من سكان جزر هوكادو وساخالين وشيكوتو ، كما سبق بيان ذلك فى فصائل اللغات .

(٢) يتكلم بها الآن نحو مليون ونصف من الباسكيين الذين يقطنون جبال البرانس الغربية فى العدوتين الفرنسية والاسبانية ، كما سبق بيان ذلك فى فصائل اللغات

و الليتو نية[١]. ومنها ما يكون حاله وسطاً بين هذا و ذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق، كما هو شأن الحبشية و الفارسية .

هذا ، ولانتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلى :

١ — أن تشتبك اللغة فى صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى نواميس الصراع اللغوى أن يكتب لها النصر[٢] فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة ، فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة فى عداد الناطقين بها . وذلك كما حدث للاتينية فى العصور القديمة إذ تغلبت على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى والإليريا Illyrie [٣] ، فأصبحت لغـــة الحديث والكتابة فى منطقة واسعة فى القسم الجنوبى الغربى من أوروبا ، بعد أن كانت قديماً مقصورة على منطقة ضيقة فى وسط إيطاليا هى منطقة اللاتيوم Latium ، وكما حدث للغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو مائة مليون ينتمون إلى نحو خمس

(١) يتكلم بها سكان ليتونيا الذين يبلغ عددهم الآن نحو مليونين ، كما سبق بيان ذلك فى فصائل اللغات .

(٢) انظر فصل الصراع اللغوى بكتابنا . « علم اللغة » (الطبعة السادسة) .

(٣) هذا هو الاسم القديم لألبانيا . — هذا ، ولم تتغلب اللاتينية إلا على بعض أطراف من البلاد الألبانية ، اذ لا تزال ألبانيا محتفظة بلغتها ومميزاتها ، كما سبق بيان ذلك فى فصائل اللغات .

عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديماً لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من بلاد العرب . وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوربا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث و الكتابة لنحو مائة مليون من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديماً مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية .

٢ — أن ينتشر أفراد شعب ما ، على أثر هجرة أو استعمار ، فى مناطق جديدة عن أوطانهم الأولى ، ويتكون من سلالاتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ، ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الإنجليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا أن انتشرت الإنجليزية فى هذه المناطق المبعثرة فبلغ عدد الناطقين بها نحو مائتى مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديما محصورة فى منطقة ضيقة من الجزر البريطانية[١] .

---

(١) يتكلم كذلك فى اتحاد جنوب أفريقيا بلغة تسمى الأفريكانية ، وهى منحدرة من الهولاندية التى كان يتكلم بها الهولنديون ، وقد كانوا أول من أقام فى مستعمرة « الكاب » ، ومن اللغة الفرنسية التى كان يتحدث بها المهاجرون (الهوجنوت) الذين قدموا فيما بعد إلى الكاب . وتعد الأفريكانية إحدى اللغتين الرسميتين فى الاتحاد . أما الثانية فهى اللغة الإنجليزية . ويتخاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة . (نشأة اللغة)

ونجم عن الاستعمار الإسبانى فى الدنيا الجديدة أن أصبحت الإسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية[١] ما عدا البرازيل ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٧٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشر أمة ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من أوروبا . ونجم عن الاستعمار البرتغالى فى الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندى ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليوناً ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى بلاد البرتغال نفسها .

٣ — أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعى فى أوطانها الأصلية نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها فى الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران فى بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعاً لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها :

(١) يتكلم كذلك فى بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية بلهجات منحدرة من لغات السكان الأصليين . ويبدو هذا على الأخص فى باراجواى . فان ٩٥٪ من أهلها لا يزالون إلى الآن يتكلمون لغة «جارانى» وهى لهجة شعوب جارانى احدى شعوب السكان الأصليين لهذه القارة ، على الرغم من أن اللغة الرسمية هناك هى الإسبانية . وقد أقامت شعوب جارانى قبل قدوم الأوروبيين امبراطورية كبيرة أسموها (توبى جارانى) فى المنطقة التى تضم الآن بارجواى والبرازيل وأجزاء من الأرجنتين . (انظر فى ذلك تحقيقا منشورا بجريدة الأهرام عدد ٦٠/٤/١٩) .

كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية . فبفضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية فى اليابان نفسها ما يزيد على سبعين مليونا[١] ، وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٥٠ مليوناً[٢] وبالإيطالية نحو ٤٠ مليوناً[٣] ، وبفضل هذا العامل مع مساعدة العاملين السابقين كذلك بلغ عدد الناطقين بالتركية نحو سبعين مليوناً[٤] .

* * *

هذا ، ومتى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها

---

(١) يدل آخر تعداد رسمى قبيل الحرب الأخيرة على أن الشعب اليابانى بلغ ٧٣،١١٤،٣٠٨ ، وأن عدد سكان الامبراطورية اليابانية قد بلغ ١٠٥،٢٦٦،١٠١ .

(٢) منهم بفرنسا نحو ٤١ مليون والباقى ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية .

(٣) معظمهم بايطاليا نفسها والباقى بسويسرا والمستعمرات الايطالية .

(٤) نحو عشرين مليونا فى تركيا ، وخمسة وثلاثين مليونا فى التركستان الشرقية والغربية ، وستة ملايين فى أذربيجان ، وثلاثة ملايين قبائل التركمان وأربك Orbak فى أفغانستان ، ومليونين فى قزن ، ومليون ونصف فى ايدل — أورال ، ومائتى ألف قبيلة قاشقاى بإيران ، وثمانين ألفا فى القرم . — فمنطقة اللغة التركية تمتد من جبال ألطاى إلى الأناضول . — وجميع أجزاء هذه المنطقة جمهوريات شيوعية ما عدا تركيا والقسم الجنوبى من أذربيجان وهو تابع لإيران وقبيلة قاشقاى فى إيران وقبيلة التركمان وأربك فى أفغانستان .

الأولى أمداً طويلا . فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض فى كثير من الوجوه ، ولكنها تظل مع ذلك متفقة فى وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى . وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه ، ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر .

فاللغة الهندية — الأوروبية الأولى قد انشعبت فى ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف ، وكل طائفة انقسمت إلى شعب وكل شعبة إلى لغات . وهكذا دواليك [١] . ومثل هذا حدث للغة السامية — الحامية الأولى[٢] ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى [٣] .

---

(١) انظر فصائل اللغات .

(٢) انظر فصائل اللغات .

(٣) انظر فصائل اللغات .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هذا القانون . فاللغة اللاتينية ، وهى إحدى لغات الفرع الإيطالى المنشعب من الهندية — الأوروبية ، قد أخذت هى نفسها فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى ، تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها حتى انفصلت عنها انفصالا تاماً ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ...) ؛ ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون . فلانتشار اللغة الإسبانية فى مناطق واسعة مبعثرة ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها ، أخذت تفقد وحدتها ، فانشعب عنها فى أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الإسبانية الأصلية اختلافاً غير يسير فى كلماتها وأصواتها ؛ بل إن بعض هذة اللهجات أخذ يختلف عن الإسبانية الأصلية فى القواعد نفسها[1] . ومثل هذا حدث بين البرتغالية فى البرتغال والبرتغالية فى البرازيل . فقد وصل الخلاف بينهما إلى القواعد نفسها ، بل إلى شكل الرسم

---

(١) وقد ألف بعض العلماء كتبا مستقلة فى قواعد بعض هذه اللهجات ككتاب الأستاذ لنز Lenz فى قواعد لهجة شيلى .

كذلك[١] . وهذا هو ما يحدث الآن للإنجليزية والألمانية . فقد أخذت إنجليزية الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن إنجليزية الجزر البريطانية فى كثير من المفردات وأساليب النطق[٢] . وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية ، حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريباً على بعض : فلهجة العراق فى العصر الحاضر مثلا لا يكاد

---

(١) جاء بجريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ١٩٤٤/٣/٢٩ بصدد اتفاق هجائى لغوى بين البرتغال والبرازيل ما يلى :

« وتلقت وزارة الخارجية من معالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى أسبانيا والبرتغال تقريرا عن اتفاق هجائى لغوى عقد أخيرا بين الحكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسى منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيحها ، وذلك بتوحيد شكلها الهجائى ونطق كلماتها . وكان الوصول إلى وضع هذا الاتفاق بفضل مساعى كبار الكتاب فى البلدين . وهذا أول اتفاق من نوعه يعزز الفكرة التى ترمى إلى توحيد الشعوب التى تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالاعراب عن أمنية هى أن تعمل البلاد العربية على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد » .

(٢) حتى إن الانجليز يسخرون من اللهجة الأمريكية ، كما يسخر الأمريكان من لهجة الانجليز ؛ ولا يكتم كل منهم سخريته هذه حتى فى أحرج الأوقات وأدعاها إلى نسيان الفروق . يدل على ذلك ما جاء فى نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة فى بريطانيا فى أثناء الحرب الأخيرة . إذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات : « ولا تسخر باللهجة البريطانية ، لأن لهجتك قد تكون مثار سخرهم ؛ ولكنهم أكثر أدبا من أن يظهروا لك ذلك » . (جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٤٢/٧/١٣) .

يفهمها المصرى . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاء العربية الفصحى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

— ٢ —

العوامل المباشرة فى تفرع اللغة

فالسبب الرئيسى فى تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا السبب لا يؤدى إلى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى إلى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل فى الماضى والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :

١ — عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التى انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها ... كل ذلك يؤدى غالباً إلى ضعف سلطانها المركزى ، وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات

ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان . فمن الواضح أن الاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير .

٣ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها . . وما إلى ذلك وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات وهلم جرا . — فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدى ، عاجلا أو آجلا ، إلى فروق وفواصل فى اللغات .

٤ — عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المتخلفة من فروق فى الأجناس والفصائل الإنسانية التى ينتمون إليها والأصول التى انحدروا منها . فمن الواضح أن لهذه الفروق آثارا بليغة فى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٥ — عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى التكوين الطبيعى لأعضاء النطق[1] . — فمن المحال ، مع فروق كهذه ، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلا .

* * *

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى

---

(١) ترجع هذه الفروق إلى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافى والشعبى المشار اليهما آنفا تحت رقمى ٣ ، ٤ .

جماعات متميزة ، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض فى شئونها السياسية والاجتماعية ، وفى خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، ويرسم لتطورها فى النواحى الصوتية والدلالية وغيرها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، فتتعدد مناهج التطور اللغوى حسب تعدد الجماعات ، ولاتنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها .

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التى تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معانى بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد La Grammaire سواء فى ذلك ما يتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا) [١] أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتكس) [٢] ، فلا ينالها فى المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلا اللهجات العامية التى انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز ونجد واليمن ومصر

---

(١) انظر صفحة ٧ الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر صفحتى ٧ ، ٨ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة » .

والسودان وبلاد المغرب فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة فى نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير ... وما إلى ذلك ، على حين أن مسافة الخلف بينها فى الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حداً جعل بعضها غريباً على بعض كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ولكن هذه الوحدة فى القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حثيثاً فى هذا الطريق حتى تبلغ غايته .

غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة فى أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك مثلا طوائف اللغات الهندية — الأوروبية : فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة .

* * *

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغة أخرى لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هذا يبدو فى أحد مظهرين : فأحياناً تحتفظ بوحدتها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة

وفئة قليلة ؛ وأحياناً تنشعب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت فى مساحات واسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إسبرانتو Espéranto) يتحدث بها الناس من مختلف الأمم والعصور . وذلك أن هذه اللغة الصناعية على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها [١] ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان : فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى أصولهم الشعبية ، وفى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى كل هذه الأمور ، فلابد أن تختلف هذه اللغة الصناعية فى كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها . . . باختلاف العصور ، وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا

---

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة .

تاماً وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضى وقت قصير أو طويل حتى تتولد من هذا العلاج المشكلة نفسها التى يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »[١] ، « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين »[٢] .

— ٣ —

اللهجات المحلية ، وصراعها بعضها مع بعض ونشأة لغة الدولة أو اللغة الفصحى أو لغة الكتابة

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات فى الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هـــذا النوع من اللهجات المحلية Dialectes Locaux . وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً فى المساحة التى يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق منطقته فلا تشمل إلا بضع قرى متقاربة ؛ ومنها ما

---

(١) آيتى ١١٨ ، ١١٩ من سورة هود .

(٢) آية ٢٢ من سورة الروم ، والعالمين بكسر اللام على رواية حفص عن عاصم أى العارفين .

يكون وسطاً بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإداري والسياسي . فقد تقسم القرى التي تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين محافظتين أو أكثر ، وقد يجتمع في محافظة واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة في مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحري .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها : فلا تدخر وسعاً في محاربة عوامل الابتداع والتغيير في منطقتها ، ولا تألو جهداً في درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات .

أما محاربة عوامل الابتداع في داخل منطقتها فتتم بفضل العلاقات الوثيقة التي تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعي ، وتتأكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشتد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوي تلقى في مجتمع قوي كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها في مهدها . وبذلك تتقي اللهجة ما عسى أن يوجه إليها في داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التي تربط أهلها بمجاوريهم ، وقلة فرص

احتكاكهم بهم ، وما يبلونه فى العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . — ويظهر هذا على الأخص فى البيئات الزراعية التى تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون فى معزل عن سكان المناطق الأخرى . — حقا إن تزوج بعض الرجال فى هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من يفد من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها وانتماءهم فى الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفى أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، وما يبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحياناً ... كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التى يقيمون فيها . — وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التى يكثر فى العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل فى حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وانتمائهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يفد إلى البلد فى شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام .

* * *

غير أنه قد يتاح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى . وحينئذ تشتبك اللهجتان فى صراع أهلى لا يختلف كثيراً فى مظاهره وطرقه عن الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين[١] .

وينتهى هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحياناً لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر فى الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوة والنفوذ ، وأحياناً تتأثر إحداهما بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر السابقة .

وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال : فأحياناً يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ، وأحياناً يكون عميقاً ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرى بلهجة المدينة التى تجاورها أو يكون بها مقر المحافظة أو المركز ، أو فى تأثرها بلهجة البلد الذى يتخذ مقراً لنقطة الشرطة أو للعمدية أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى ... وهلم جرا . فى هذه الحالات وما إليها يقف التأثر عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية . . . وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل

---

(١) انظر فصل الصراع بين اللغات فى كتابنا علم اللغة (الطبعة السادسة صفحات ٢٠٩ — ٢٢٧) .

بمنجاة من التأثر والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة محافظة من محافظات مصر تقتبس عنها كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها . . . ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التى تقلب فى لهجاتها القاف العربية جيما غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها فى هذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها مثلا القاف العربية همزة : ألنا = قلنا) فتقتبس عنها كثيراً من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ؛ ولكن تظل طريقتها الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثر بطريقة المدينة ، اللهم إلا فى الكلمات التى تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى ناحية من النواحى السابق ذكرها ، فإن التأثر يكون عميقاً لدرجة تصل أحياناً إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا فى حالتين :

(الحالة الأولى) أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى . فى هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآداباً . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ القديم والحديث : فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التى خضعت لنفوذ باريس ، وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى ،

ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية ، ولهجة روما فى العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ، ولهجة قريش قبل الإسلام مع اللهجات المضرية الأخرى . . . وهلم جرا .

(الحالة الثانية) أن تفوق إحدى المنطقتين الأخرى فى ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها . فنى هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين[1] ، وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما[2] ، وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبى لا يذكر بجانبه إنتاج أخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع .

وفى كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع فى مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة.

---

(١) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت اليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٢) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت اليها كما انتقلت إلى غيرها .

فيطول أمده ويشتد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الإسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات . — ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . — وفى القسم الفرنسى اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى فى المناطق الكاثوليكية (فاليه ، فريبورج . . . (Vlais, Fribourg . . .) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد فى المناطق البروتستانتية (نيو شاتل ، جنيف ...) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلماً من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهداً بالمدارس . ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التى كانت منتشرة فى إقليمى السين واللوار ، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ؛ على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة ، لكثرة الفروق التى تفصلها عنه .

هذا . ويسير تغلب لهجة على أخرى على نفس السنن الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض [١] فى المرحلة الأولى

---

(١) انظر تفصيل ذلك بكتابنا « اللغة والمجتمع » الطبعة الثانية صفحات ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٤ .

تقذف اللهجة الغالبة اللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات : فينطق أهلها بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ؛ حتى إنهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالأصوات التى لا يوجد لها نظير لديهم أصواتا قريبة منها من حروف لهجتهم.— وفى المرحلة الثانية تتسرب إلى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ؛ فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج وبنفس الطريقة التى يسير عليها النطق فى اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول ، ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفى مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها فى القواعد[١] . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . — وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً ، فتأخذ قواعد اللغة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على

---

(١) لا يكون الاختلاف فى العادة كبيرا فى القواعد بين اللهجات المنشعبة من لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة .

اللغة المغلوبة ، غير أنها كثيراً ما تترك فى ألسنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم فى صور تختلف فى قواعدها عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المندثرة .

* * *

واللهجة التى يتاح لها التغلب فى أمة ما على بقية أخواتها أو على معظمها تصبح ، عاجلا أو آجلا ، « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى » أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها فى مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة فى معاهدها ، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم فى مختلف نواحى الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب فى الجيش . . . وهلم جرا [١] . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت « لغة الدولة » بفرنسا ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بانجلترا ومدريد بإسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا ،

(١) قد لا يكون للأمة أى لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فان لغتها هى الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا فان بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والايطالية . وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة فى الأمة هى اللغة القديمة التى انشعبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وايطاليا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية بمصر والسودان وشبه جزيرة العرب وشمال أفريقية .

فقد أصبحت هذه اللهجات هى اللغات الرسمية ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وتسلك لغات الكتابة فى تطورها طريقاً خاصة تختلف عن الطريق التى تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك فى الفقرة التالية . ولذلك نرى أن لغة الكتابة مع اتفاقها فى المبـــدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها فى كثير من الشئون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافاً غير يسير ؛ وكذلك الشأن فى انجلترا ، فقد بعدت اللهجة الدارجة لأهل لندن بعداً كبيراً عن اللغة الفصحى ، حتى إن بعض العلماء قد ألف فيها معجمات خاصة[1] .

— ٤ —

اختلاف نواحى اللغة الفصحى باختلاف فنون القول
لغة الآداب وخصائصها وأنواعها : الشعر والنثر
وظيفتا اللغة : الدلالة والإيحاء

كما تنشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص .

(١) من هؤلاء العلامة بارترووج أستاذ اللغات الانجليزية ، فقد أخرج منذ سنوات معجما للغة الانجليزية العامية بحث فيه بحثا علميا اللغة الدارجة لأهل لندن (انظر جريدة المصرى الصادرة فى ٢١/٥/١٩٥٠) .

تنشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التى تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ؛ النثر الأدبى ؛ الخطابة ؛ القصة ؛ الرسائل ؛ التاريخ ؛ القانون ؛ تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه فى طبيعته وأغراضه البيانية ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والإدراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره فى نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار . . . وهلم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف فى هذه الأمور وما إليها يؤدى حتما إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه فى مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره ، وطريقة علاجه للحقائق ... وما إلى ذلك . وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شىء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن فى كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة فى اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطاع بسهولة معرفة الفن الذى تتصل به : فعلى ضوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إبانتها عن الحقائق . . . يستطاع بسهولة الحكم إن كانت شعراً أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفياً أم بحثاً علمياً . . . وهلم جرا .

* * *

ومن أهم شعب اللـــغة الفصحى ما يسمونه لغـــة الأدب Langue Littéraire ، وهى التى تستخدم فى الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن ما يتخذه غيرها وسيلة تتخذه هى غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . فى جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ . . .) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضاً فى ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من المجهود . فأهم ما يقام له وزن فى لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير . . . وهلم جرا .

وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها : الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبى ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى إليه من أغراض . . . الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته فى النظم والوزن ، والتأليف الموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولا بالذات إلى

مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسى هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإبهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر فى عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهته التعمق فى الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات فى أوزان خاصة فليس شرطاً أساسياً فى الشعر : فاذا توافرت الصفات السابقة فى كلام منثور بعد عن النثر وتاخم مناطق الشعر ، وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق فى توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه ، كما هو الشأن فيما اشتهرت تسميته باسم « المتون » المنظومة

— ٥ —

اختلاف اللهجات فى البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم

« اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux

تنشعب أحياناً لغة المحادثة فى البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم : فيكون ثم مثلا لهجة للطبقة الأريستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة .

ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبرادين ، وسادسة للنجارين . . . وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux تمييزاً لها عن « اللهجات المحلية » Dialectes Locaux التى كانت موضوع حديثنا فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل [١] .

ويؤدى إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق فى الثقافة والتربية ، ومناحى التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعتهم وأعمالهم . . . وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة فى كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها فى المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ . . . وما إلى ذلك .

---

(١) يرجع الفضل فى هاتين التسميتين إلى العلامة بول باسى **Paul Passy**

وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً فى هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذى انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها : كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال Argots des voleurs, des malfaiteurs, et des ouvriers

ويزداد فى العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه . ولذلك كانت فى فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافاً عن الأصل الذى انشعبت منه ، وبعـــداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية . وكذلك الشأن فى إنجلترا ، حتى لقد ألف فى لهجات المجرمين من الانجليز معجمات خاصة [١] .

---

(١) أخرج أريك بارتروج ، أستاذ اللغة الانجليزية معجما للغة المجرمين من الانجليز قضى فى وضعه خمس سنوات . ويقع المعجم فى ثمانمائة صفحة احتوت على جميع المصطلحات التى يستعملها اللصوص وقطاع الطريق والمجرمون الانجليز من القرن السادس عشر حتى العصر الحاضر . وقد استعان فى اخراج مؤلفه بالبحث فى ملفات القضايا الجنائية من عام ١٧٢٩ حتى أواخر النصف الأول من القرن الحالى ، كما استعان بكثيرين من قسس السجون وتردد على أمكنة اجتماعات المجرمين (انظر جريدة المصرى الصادرة فى ٢١/٥/١٩٥٠) .

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير فى نفس السبيل الارتقائى الذى تسير فيه اللهجات المحلية ، فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ، ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصطلحات ويتواضعون عليه من عبارات ويقتبسونه من اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تراكيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى الأولى اختلافاً بيناً عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف فى القرن العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التى كتبها بتلك اللهجات فى القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسى فرانسوا فيلون François Villon [1] لم يستطع بعد فى العصر الحاضر حل رموزها ولا فهم مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية فى لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً ؛ فتستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التى خصص مدلولها العام واصطلح على إطلاقها على

---

(١) شاعر فرنسي ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفى سنة ١٤٨٩ وقد عاش فى وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » .

أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس فى العصر الحاضر قد دخل فيها عن هـــذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين . وكذلك الشأن فى اللغة الإنجليزية [1] .

ولا تتميز فى العادة اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض تميزاً واضحاً إلا فى المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركة الاقتصادية ، وتتنوع الوظائف ، وتتعدد المهن ، ويشتد النزاع بين الطبقات : كنيويورك ولندن وباريس فى العصر الحاضر ، وكبغداد فى العصر العباسى .

ـــ وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه « باللهجـــات الحِرْفية » ؛ وهى اللهجات التى يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين والبحارة ... وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها عن بعض تميزاً كبيراً فى المناطق التى يسود فيهـــا « نظام الطوائف » Régime des Castes حيث تختص كل طبقـــة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال

---

(١) أثبت الأستاذ بارتروج فى معجمه المشار اليه فى التعليق المدون فى صفحة ١٣٨ أن كثيرا من الاصطلاحات الحديثة فى اللغة الأنجليزية التى يظن الانجليز أنها مأخوذة من اللغة الأمريكية العامية مشتقة فى الأصل من لغة المجرمين الانجليز أو من اللغة الايرلندية القديمة (نظر جريدة المصرى الصادرة فى ١٩٥٠/٥/٢١) .

بغيرها ، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال فى كثير من بلاد الهند . على حين أنه فى الأمم الحديثة التى قضى فيها على نظام الطوائف ، فأصبحت الحرف حظاً مشاعاً بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التى تروقه ، وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، فى هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها فى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، ويقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات [1] .

---

(١) للهجات الاجتماعية مظاهر كثيرة فى مصر فى العصر الحاضر نفسه . ومن أوضح مظاهرها لغة الصيادين وأبناء البحار ، فهى تختلف اختلافا كبيرا عن اللغة العادية فى كثير من مفرداتها وتراكيبها . ومن بين مفرداتها ما هو من أصل عربى وان اختلف مدلوله أحيانا عن مدلوله فى الفصحى . ومن ذلك « ينصلح » بمعنى يهلك ؛ و « القرية » وهى خشبة الشراع الأكبر ؛ و « البومة » وهى الخشبة المربوط فيها القلع ؛ و « الغليني » وهو الجو الناعس الحنون ؛ و « المريس » وهو الريح من الجنوب ؛ و « اللبش » وهو الريح من الجنوب الغربى ؛ و « الشلوق » وهو الريح من الجنوب الشرقى ؛ و « القلفطة » وهى عملية رتق السفينة بالشحم وحبال الكتان ؛ و « الشاغول » و « العويل » و « الابليس » و « الفاية » وهى أسماء لحبال مختلفة يربط بها الشراع ؛ و « ضرب بلطة » بضم الباء أى حاد عن الجادة فانحرف نحو اليمين أو الشمال مع الريح أو ليغير اتجاه السفينة . — ومن بين مفرداتها ما هو غير عربى الأصل . ومن ذلك « الأرطمون » (من أصل فرنسى ومعناها شراع صغير) ؛ و « البانكا » (من أصل ايطالى وهو مقعد المجدفين) ؛ و « الهلب » (من أصل انجليزى ومعناها المرساة) ؛ و « الشابورة » (من أصل ألمانى وهى خشبة فى مقدمة السفينة) ؛ و « السكارج » (من أصل فارسى وهى حلقات اللفة) ؛=

هذا ، وقد خيل إلى بعض علماء « الإتنوجرافيا » أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقاً ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة ، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالا . وقد تابعهم فى هذا الرأى بعض القدامى من علماء اللغة ؛ ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى ، بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية . فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقاً ؛ بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشر بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشىء إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد . بل لا يتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين . . . وهلم جرا .

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشأتها عن « اللهجات المحلية » التى تكلمنا عنها فى الفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل . فكلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها

= و « البروة » (من أصل أسبانى وهى صدر السفينة) . — انظر فى ذلك مقالا تحت عنوان : « لغة الغموض والألغاز التى يتفاهم بها الصيادون » نشره فى جريدة المصرى الصادرة فى ١٩٥٠/٢/٢٥ الأستاذ ابراهيم محمد الفحام .

وكثير من الكلمات السابقة قد قمت أنا بتسجيله من لغة البحارة من أهل رشيد .

أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون ويفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعثر أحياناً فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقاً فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعاً من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن هــذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة على لهجــات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا فى عدد قليل من الكلمات ، أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها مع تقادم الزمن ، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذى أخذت منه . وقد تصل فى انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحى أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال ، ولعل هذا

هو ما حدا ببعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع [١].

— ٦ —

اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث فى بعض الشعوب التى يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء ، أو يعيش فيها كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافاً يسيراً أو كبيراً .

وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوى كلما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين ، حتى إنه لينشأ أحياناً من جراء ذلك لكل منهما لهجة تختلف اختلافاً بيناً عن لهجة الآخر ، أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات وجمل كثيرة لا تستخدم فى اللهجة الأخرى . وقد لوحظ ذلك فى بعض الشعوب البدائية على الأخص [٢] .

---

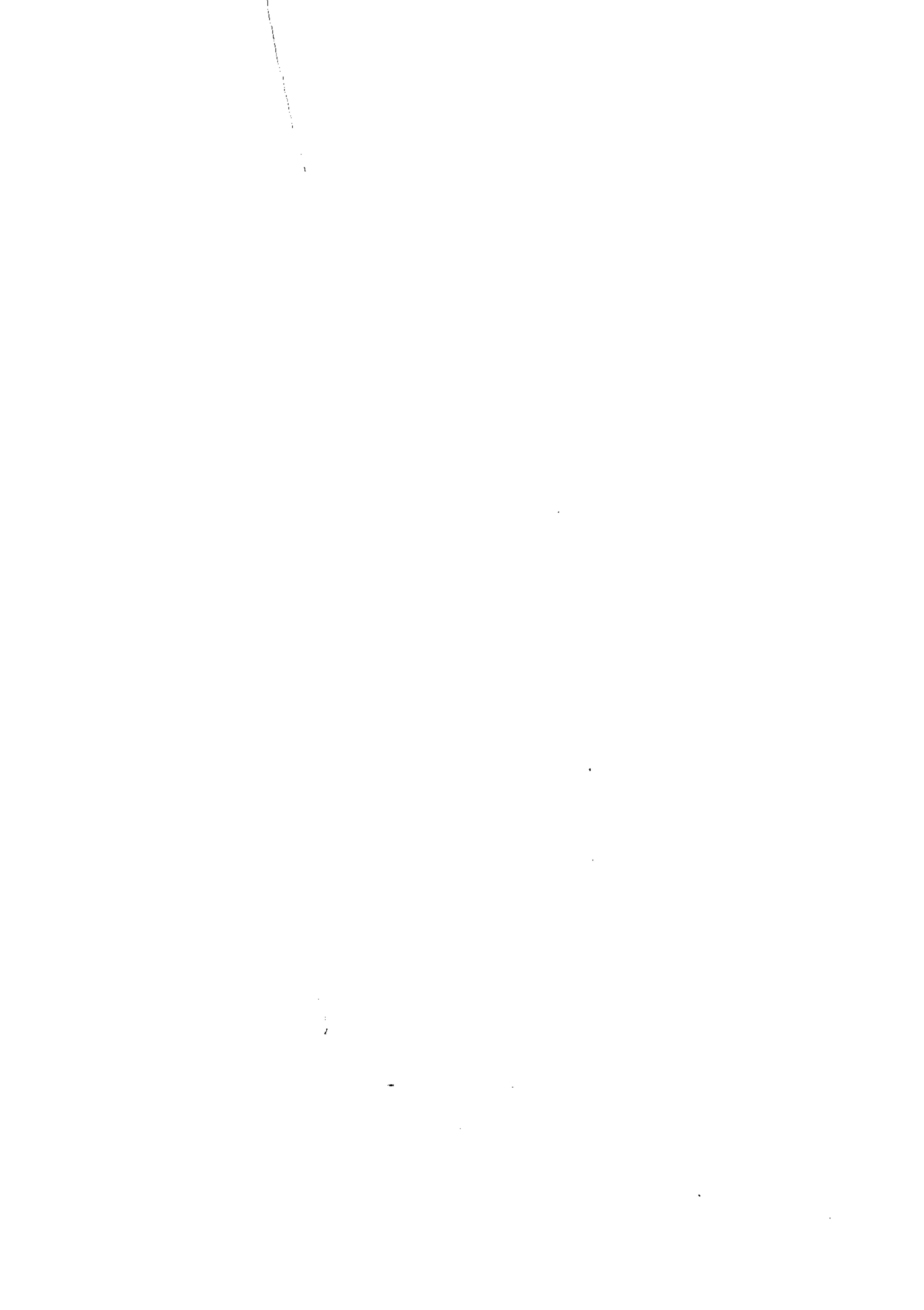
(١) يرجع الفضل فى دراسة اللهجات الاجتماعية إلى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع . ومن أشهر من عنى بدراستها من علماء الاجتماع فان جينيب V. Van Gennep : Essai d'une théorie des Langues Speciales (Revue des Eutdies éthnographiques et Sociologiques. Juin-Juillet 1908).

(٢) V. Durkheim : La prohibition de l'Inceste et ses. origines dans : «L'Année Sociologique» T. I. P. 49.

ويخف هذا الاختلاف اللغوى كلما خفت قيود الاختلاط بين الجنسين : فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة فى الأصوات والمفردات والجمل والأساليب ، كما هو مشاهد فى كثير من المناطق المصرية فى العصر الحاضر .

وليست هذه اللهجات فى الواقع إلا نوعاً من أنواع « اللهجات الاجتماعية » التى تقدم الكلام عنها فى الفقرة السابقة . فمعظم ما قلناه هناك فى نشأة اللهجات الاجتماعية وعواملها وتطورها ... وما إلى ذلك يصدق على هذا النوع .

الباب الثانى
نشأة اللغة عند الطفل



الفصل الأول

أنواع الأصوات والتعبير فى الطفولة

— ١ —

أنواع الأصوات فى الطفولة

يرجع أهم ما يلفظه الطفل من أصوات إلى الأنواع الآتية :

١ — « الأصوات الوجدانية » أو « أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات » ، وهى الأصوات الفطرية التى تصدر من الطفل فى أثناء تلبسه بحالة انفعالية ، كالأصوات التى تصدر منه فى حالات الخوف والألم والجوع والفرح والغضب والسرور والدهشة ، كالبكاء والضحك ومختلف أنواع الصراخ الوجدانى .

وهذا النوع فطرى عند الطفل ، يصدر منه بشكل غير إرادى وبدون سابق تجربة ولا تعليم ولا تقليد[1] ، وتثيره الحالات الجسمية والنفسية أليمها وسارها . وهذه الإثارة قائمة على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بالحالات الجسمية والنفسية بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتاً معينة عند وجود حالة من هذه الحالات . فالطفل إذ يلفظ هذه الأصوات

---

(١) ليس أدل على أن هذا النوع فطرى وعلى عدم توقفه على المحاكاة أنه يظهر حتى عند الطفل الذى يولد أصم .

تحت تأثير الحالة الجسمية أو النفسية أشبه شيء بساعة الحائط إذ تدق أجراسها بصوت آلى حينما تصل مشيراتها (عقاربها) إلى نقط خاصة ، وتختلف دقاتها نوعاً وكمية باختلاف هذه النقط .

ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهى التى يرمز إليها بحروف المد) مختلطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع (وهى التى يرمز إليها بالحروف الساكنة) .

وقد حاول العلامة شترن Stern ، على ضوء ما قام به فى هذا الصدد من ملاحظات وتجارب ، أن يعين نوع الصوت الذى يظهر فى كل حالة من الحالات الانفعالية المشار إليها ؛ فانتهى بحثه إلى نتائج كثيرة منها أن حروف اللين مكررة تعبر عن السرور والحزن ، وإن الميم والنون تعبران عن كل ما له علاقة بالأمور الداخلية (الجوع ، الرغبة ، الخ) ، وأن الباء والدال والتاء تعبر عن كل ما له علاقة بالعالم الخارجى . — غير أن التحقق من صحة هذه النتائج يحتاج إلى استقراء كبير يتعذر إجراؤه . هذا إلى أن كل ما يقال بهذا الشأن تقريبى ؛ لأن الأصوات التى نحن بصدد الكلام عليها يتألف معظمها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، من أصوات مبهمة يصعب تحديد ما يشبهها من أصوات اللغة .

هذا ، ويصحب انفعالات الطفل كذلك طائفة من المظاهر الجسمية المرئية كصفرة الوجه وحمرته ووقوف شعر الرأس وضيق

الحدقة واتساعها وفتح الفم وانقباض عضلات الوجه وانبساطها وتفتح الأسارير وانكماشها . . . وهلم جرا . وهذه المظاهر قائمة على نفس الأسس الطبيعية القائمة عليها الأصوات الوجدانية ، وتصدر دائماً مصاحبة لهذه الأصوات . فهى فطرية غريزية تصدر من الطفل بدون سابق تجربة وتعليم ويثيرها بطريقة آلية ما يتلبس به الطفل من انفعال .

٢ — « الأصوات الوجدانية الإرادية » . — وهى أصوات النوع السابق حينما يستعملها الطفل استعمالا إرادياً . وذلك أن الأصوات الوجدانية الفطرية التى تقدمت الإشارة إليها يدرك المحيطون بالطفل مصادرها ومثيراتها فيعملون على وقفها بتحقيق ما يعوز الطفل وقضاء ما يحتاج إليه . ومن تكرار سلوكهم هذا ، يدرك الطفل أن هذه الأصوات من شأنها أن ترغم الكبار على تحقيق رغباته ، فيلفظها أحياناً بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عن حالة قائمة به أو عن مطلب من مطالبه . فتراه مثلا يتعمد البكاء أو الصراخ أو يتمادى فيهما بشكل إرادى حتى تحمله مربيته أو ترضعه أو تبعد عنه هنة لا يريدها . . . وهلم جرا . — وتسمى حينئذ هذه الأصوات « بالأصوات الوجدانية الإرادية » .

وما يتخذه حيال الأصوات يتخذه أحياناً حيال الحركات الجسمية المعبرة عن الانفعالات . فقد يقوم ببعض هذه الحركات بشكل إرادى قاصداً بها التعبير عما يساوره من انفعال أو يبغى

تحقيقه من رغبة . فقد يتعمد مثلا تقطيب وجهه أو تحريك يديه حركات عنيفة للتعبير بشكل إرادى عن غضبه ، وقد يتعمد قبض عضلات الوجه للتعبير عن كراهته لشىء أو اشمئزازه منه . . . وهلم جرا .

وهو فى الحالين (حالة الصوت الإرادى وحالة الحركات الإرادية) يحاكى نفسه فى حالتها الطبيعية الفطرية ، فيمثل بشكل إرادى ما يصدر عنه عادة بشكل آلى فطرى .

٣ — « أصوات الإثارة السمعية » . — وهى أصوات فطرية غير تقليدية تصدر من الطفل فى شهوره الأولى حينما يسمع بعض الأصوات . فى هذه المرحلة نرى أن سماع الطفل لبعض الأصوات (وبخاصة الأصوات المرتفعة) يثير أعضاء صوته ويجعلها تلفظ بشكل آلى أصواتاً غير تقليدية (أى لا تحاكى الأصوات المسموعة) شبيهة بأصواته الوجدانية التى أشرنا إليها فيما سبق . — ويحدث هذا عند سماعه أحد المحيطين به يناغيه أو يتحدث بصوت مرتفع أو عند سماعه صوت حيوان أو آلة موسيقية . . . وهلم جرا .

ويظهر هذا النوع من الأصوات لدى الطفل فى سن مبكرة . فقد لاحظ الأستاذ « جويوم Guitlaume أن ابنــه « بول » ، ولما يتجاوز الشهر الثانى ، تصدر منه هذه الأصوات عندما تكلمه أمه أو يكلمه هو بعبارات طويلة ، وأنه عندما بلغ الشهر الثالث

كان صوت « البيانو » يثير أعضاء نطقه فتلفظ أصواتاً مبهمة لا تحاكى فى شىء النغم الموسيقى الذى يسمعه ؛ وأن بنته « لويز » ، وسنها شهران ونصف ، كانت الأصوات التى تلفظها فى أثناء مناغاته لها أشبه شىء بإجابات على حديثه ؛ فكانت تلفظ هذه الأصوات كلما توقف هو عن الحديث أو انتهت عبارة من عباراته ، وأن حالتها كانت شبيهة بحالة شخصين يتحدثان محادثة منظمة . — وقد لاحظت هذه الظاهرة نفسها على ابنتى عفاف فى سن مبكرة . ففى اليوم الثانى من شهرها الثالث (٢٤/٣/٢٧) أثارت مناغاتى لها أعضاء نطقها فأخذت تلفظ أصواتاً مبهمة مصحوبة بالابتسام وحركات الأطراف .

ومن هذا النوع من الأصوات ما يسمونه « العدوى الصوتية » التى تبدو عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد والتى تلازمهم فى معظم مراحل طفولتهم : يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات زملائه ؛ ويبكى أحدهم فيبكى لبكائه الآخرون[١] .

ويتألف هذا النوع ، كما يتألف النوعان السابقان ، من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهى التى نرمز إليها بحروف المد) مختلطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع (وهى التى نرمز إليها بالحروف الساكنة) .

---

(١) وقد لاحظ الأستاذ « بلانتون » أن هذه العدوى الصوتية لا تظهر قبل نهاية الشهر الأول .

وقد ثبت أن هذه الأصوات ليست إرادية ولا تقليدية ، بل فطرية آلية تصدر بدون تدخل إرادة الطفل ولا تتجه إلى محاكاة أمر ما . وهى قائمة على أسس طبيعية شبيهة بالأسس القائمة عليها الأصوات الوجدانية . فكما أن تلبس الطفل بحالة انفعالية يثير أعضاء صوته ، فتتحرك بشكل آلى وتلفظ الأصوات الوجدانية السابق ذكرها ؛ كذلك سماع الطفل فى هذه المرحلة لبعض الأصوات ، فإنه يثير أعضاء نطقه فتتحرك بشكل آلى وتلفظ الأصوات التى نحن بصدد الكلام عنها . فكلا النوعين فطرى آلى قائم على روابط طبيعية . وكل ما بينهما من فرق ينحصر فى أن الأول مؤسس على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتاً خاصة عند وجود حالة من هذه الحالات ؛ على حين أن الثانى قائم على روابط طبيعية تربط جهاز السمع بجهاز الصوت بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتا مبهمة عند وصول أصوات إلى الجهاز الأول .

٤ — « أصوات التمرينات النطقية » Exercices vocaux أو « اللعب اللفظى » jeu vocal أو « اللغط » Babillage .

يظهر لدى الطفل حوالى الشهر الخامس ميــل فطرى إلى اللعب بالأصوات وتمرين أعضاء النطق ، فيقضى فترات طويلة من وقته فى إخراج أصوات متنوعة عارية الدلالة وعن قصد

التعبير . — وقد سمى الباحثون هذا النوع من الأصوات بالتمرينات النطقية أو اللعب اللفظى أو اللغط [١] .

وينتظم هذا النوع جميع الأصوات المدية والمقطعية (حروف اللين والحروف الساكنة) التى يمكن أن تلفظها أعضاء النطق الإنسانى . ولذلك كثيراً ما نجد من بينها أصواتاً غريبة عن اللغة التى ينطق بها آباء الطفل . فكثيراً ما يرد فيما يلفظه أطفالنا المصريون من هذا النوع أصوات لا وجود لها فى لغتنا ، كالأصوات التى يرمز إليها فى الفرنسية بهذه الحروف V, p, g, eu .

وقد لاحظ رونجات وميرينجير وجوتمان Gutzman, Meringer, Ronjat أن من بين الأصوات التى يلفظها أطفال الأوربيين فى هذه المرحلة أصواتاً لا يوجد لها نظير إلا فى لغات الصين ، أو اليابان ، أو فى رطانات زنوج أفريقيا ، أو فى لهجات السكان الأصليين لأمريكا واستراليا . — ومن ثم يظهر فساد ما ذهب إليه فونت وبريير ومور Wundt, . Preyer, Moor إذ زعموا أن أصوات هذه المرحلة تختلف باختلاف الشعوب ، وأن أطفال كل أمة لا يلفظون فى أثنائها إلا الأصوات الخاصة بلغة

---

(١) قد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس ، فقد لاحظته عند ابنتى عفاف فى أوائل الشهر الثالث (ابتدأ ظهوره لديها يوم ١٩٣٤/٣/٢٧) ، وظهر عند ابنى اقدام فى أوائل الشهر الرابع (ابتدأ ظهوره لديه يوم ٤٠/١٢/٧ وقد ولد يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٠) .

بلادهم ، أى التى سيستخدمونها فى المرحلة التالية ، فكأنهم بذلك يدربون أعضاء نطقهم على ما ستواجهه فى المستقبل من مشكلات لغوية خاصة .

ويلاحظ أن الطفل فى هذه المرحلة يولع بتكرار الصوت الذى يلفظه من هذا النوع عدة مرات : بابابا — تاتاتا أتيتا ... الخ . ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة : منها أن النشاط الحركى يتجه دائماً إلى الأشكال المماثلة والأوضاع المتشابهة ؛ ومنها أن وقف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذى يتطلبه استمرارها ؛ فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين (وإلى هذا يرجع السبب فى حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار وخاصة حينما يسرعون فى كلامهم) ؛ ومنها أن الطفل عندما يلفظ صوتاً ما يحدث لديه هذا الصوت إحساساً سمعياً يرتاح إليه ويتلذذ بوقعه ، فيكرر الصوت ليتكرر احساسه هذا ، كما أن احساسه صوت طبلة دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه إلى تكرار الدق والرمى ليتكرر نفس الصوت ؛ وهذا مظهر من المظاهر التى أطلق عليها العلامة بلدوين : « تقليد الطفل لنفسه » أو « التفاعل الدائرى عند الطفل » . وتبقى هذه العادة عند الطفل فى أوائل المرحلة التالية كما سنذكر ذلك فى موطنه [١] .

ولا يرمى الطفل من وراء هذه الأصوات إلى محاكاة أو تعبير ،

---

(١) انظر ص ١٧٣ .

وإنما تدفعه إليها غرائزه دفعاً كما تدفعه إلى سائر ألعابه ، ويجد لذة كبيرة فى مجرد لفظها كما يجد لذة فى القيام بألعابه الأخرى .

ويظهر أن الغرض الذى ترمى إليه الطبيعة من دفع الطفل إلى هذا النوع من الألعاب هو تدريب أعضاء نطقه على القيام بوظائفها العامة وإعداده إعداداً تاماً للمرحلة التالية وهى المرحلة التى يأخذ فيها اللغة عن طريق محاكاته لما يسمعه من المحيطين به.[1] .

غير أنه يظهر كذلك أن بعض الأصوات التى يلفظها الطفل فى أواخر هذه المرحلة والتى تبدو من نوع « التمرينات النطقية » هى فى الحقيقة أصوات تقليدية يحاول بها الطفل أن يحاكى ما يسمعه من كلمات فيلفظها لفظاً خاطئاً بعيداً كل البعد عن الأصل ، أو يحاول بها محاكاة النبرات العامة التى تتألف منها الصورة الموسيقية لبعض ما يسمعه من عبارات . ولا أدل على ذلك مما لاحظه الأستاذ جرامون Gramont الفرنسى . فقد اختار لابنه مربية إيطالية ظلت ملازمة له حتى قبيل انتهاء هذه المرحلة . وبعد شهر تقريباً من انقطاعها عنه ، دخل الطفل فى مرحلة التقليد اللغوى . فلاحظ والده حينئذ أنه يلفظ الكلمات الفرنسية بلكنة إيطالية ، وأن هذه العادة لم يتخلص منها إلا بعد أمد طويل . وهذا يدل على أن بعض

---

(١) انظر تفصيل هذا بكتابنا « عوامل التربية » صفحات ١٨٥ — ١٨٧ . هذا ، والغرض الذى أشرنا إليه وهو الاعداد للحياة المستقبلة ليس مقصورا على الألعاب اللفظية بل مشتركا فى جميع الألعاب الانسانية .

الأصوات التى كان يلفظها فى مرحلة « التمرينات النطقية » إذ كانت مربيته الإيطالية تناغيه بلهجتها ، كان يحاول بها تقليد النبرات العامة لحديثها ، وأن هذه المحاولات قد مكنت أسلوب الصوت الإيطالى من لسانه وظهرت آثار ذلك فى حديثه فيما بعد .

٥ — الأصوات التى يحاكى بها الطفل أصوات الأشياء والحيوانات (هزيز الريح ، حفيف الشجر ، خرير الماء ، جمجمة الرحى ، صرير الباب ، درداب الطبل ، طنطنة الأوتار ، دقات الساعة ، نفير السيارة ، صهيل الفرس ، نهيق الحمار ، خوار البقر ، ثغاء الغنم ، نباح الكلب ، مواء الهر ، صياح الديك ، هديل الحمام ، نعيق الغراب ... وهلم جرا) .

وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطرى عند الطفل ، وهو غريزة المحاكاة . ولكنها ، مع ذلك ، تصدر بشكل إرادى . ويرمى الطفل من ورائها إلى غايات معينة . فهو يرمى أحياناً إلى مجرد التلذذ بالمحاكاة أو اثبات قدرته على التقليد ، وأحياناً إلى التعبير عن أمور تتصل بالشىء أو الحيوان الذى يحاكى صوته ، كأن يحاكى صوت الكلب للتعبير عن رغبته فى رؤيته أو عن قدومه . . . وما إلى ذلك . وهو يحاكى أحياناً هذه الأصوات المبهمة فى صورتها الطبيعية ، وأحياناً يحاكيها بوضعها فى أصوات ذات مقاطع « فيعبر عن صوت الدجاجة مثلا بكلمة « كاك » وعن صوت الكلب بكلمة « هَوْ »... وهلم جرا .

٦ ــ الأصوات المركبة ذات المقاطع والدلالات الوضعية التى تتألف منها الكلمات وتتكون منها اللغة .

وهذا النوع من الأصوات يأخذه الطفل عن المحيطين به بطريق التقليد ، ويندفع إليه تحت تأثير ميله الفطرى إلى المحاكاة . ولكنه ، مع ذلك ، إرادى فى تكونه وفى استخدامه . أما فيما يتعلق بتكونه ، فهو لا يصدر من الطفل بشكل آلى كما تصدر أصواته الوجدانية مثلا ، بل يبذل الطفل فى إصداره وإصلاح خاطئه وتكملة نقصه وجعله مطابقاً للصوت الذى يحاكيه . . . مجهوداً إرادياً ويشرف على جميع هذه الأمور إشرافاً مقصوداً . وأما فيما يتعلق باستخدامه ، فإن الطفل يلفظه مريداً به التعبير عن المعانى والحقائق التى يدل عليها . وذلك أن هذه الطائفة من الأصوات لا تنتقل إلى الطفل مجردة ، بل تنتقل إليه حاملة معها معانيها . فهو يدرك ما تدل عليه من سياق أعمال المتكلمين بها ومن الحركات اليدوية والجسمية التى تصحبها ومن الإشارة الجسمية إلى مدلولاتها . . . وهلم جرا . فيحاكيها متصوراً معانيها تصوراً كاملا أو ناقصاً تبعاً لمبلغ الدقة فى ملاحظته . وكلما اكتسب لفظاً منها عن هذا الطريق احتفظ به إلى حين الحاجة إليه ، فيلفظه كلما أراد التعبير عن مدلوله [١] .

---

(١) هناك نظريات أخرى كثيرة فى الأساس القائم عليه هذا النوع من الأصوات وسنعرض لها فى الفصل الخامس من هذا الباب .

— ٢ —

أنواع التعبير فى الطفولة

عرضنا فى الفقرة السابقة لجميع أنواع التعبير فى الطفولة ماعدا نوعاً واحداً لم تدع إلى الكلام عنه مناسبة ما فى الموضوع السابق ، وهو التعبير الإرادى عن المعانى عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية . وإلى هذا النوع من التعبير يلجأ الطفل فى جميع مراحل طفولته ، فيستخدمه أحياناً مستقلا عن غيره (كأن يمد يده ويفتح كفه للتعبير عن رغبته فى الحصول على شىء ما . أو يمد يده نحو شخص ويقبض أصابعه ويبسطها للتعبير عن رغبته فى مجيئه بجانبه ، أو يقبض أصابعه ويقربها من شفتيه محاكياً حركة الشرب للتعبير عن حاجته إلى الماء ، أو يهوى بيده بحركة عنيفة للتعبير عن الضرب ... وهلم جرا) ، وأحياناً يستخدمه مع الكلام ، لتكملة ماينقص حديثه ويعوزه من دلالة ، أو لتوكيد المعانى وتمثيل الحقائق وزيادة التوضيح .

وبإضافة هذا النوع إلى الأنواع التى عرضنا لها فى الفقرة السابقة ، يتبين أن مظاهر التعبير فى الطفولة ترجع إلى سبعة أقسام :

١ — التعبير الطبيعى عن الانفعال عن طريق الأصوات ؛

٢ — التعبير الطبيعى عن الانفعال عن طريق الحركات الجسمية ؛

٣ — التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الأول ؛

٤ — التعبير الإرادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الثانى ؛

٥ — التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ؛

٦ — التعبير عن المعانى عن طريق اللغة (الجمل والكلمات) ؛

٧ — التعبير عن المعانى عن طريق الإشارات اليدوية والجسمية.

ومجمل هذا أن التعبير فى الطفولة لا يخرج عن طائفتين : تعبير عن الانفعالات ، وتعبير عن المعانى .

أما التعبير عن الانفعالات فيكون أحياناً طبيعياً وأحياناً إرادياً يحاكى فيه التعبير الطبيعى ، وكلاهما يكون عن طريق الصوت أو عن طريق الحركة . فهذه أربعة .

وأما التعبير عن المعانى فلا يكون إلا إرادياً : ويحدث أحياناً عن طريق الإشارة اليدوية أو الجسمية ، وأحياناً عن طريق محاكاة أصوات الحيوانات والأشياء ، وأحياناً عن طريق اللغة . فهذه ثلاثة .



الفصل الثانى

المراحل التى يجتازها الطفل في أصواته وتعبيراته

يجتاز الطفل فى هذه السبيل أربع مراحل تمتاز كل مرحلة منها بمميزات خاصة فى أصواته وتعبيراته . وسنقف على كل مرحلة من هذه المراحل فقرة على حدة .

— ١ —

المرحلة الأولى : من الولادة إلى الشهر الخامس

وفى هذه المرحلة لا يظهر من أنواع الأصوات الستة السابق ذكرها إلا الأنواع الثلاثة الأولى (« الأصوات الوجدانية » و« الأصوات الوجدانية الإرادية» و« أصوات الإثارة السمعية [١] »).

أما تعبيرات الطفل فى هذه المرحلة فتنتظم جميع أنواع التعبير السابق ذكرها ماعدا النوعين الخامس والسادس (التعبير عن المعانى عن طريق اللغة ، والتعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان والأشياء) [٢] .

---

(١) انظر صفحات ١٤٩ — ١٥٤ .

(٢) انظر صفحتى ١٦٠ ، ١٦١ .

فيبدو لديه فى هذه المرحلة التعبير الطبيعى عن الانفعال فى مظهريه الصوتى والحركى (البكاء ، الصراخ ، الضحك ، الابتسام، انقباض الأسارير وانبساطها ، احمرار الوجه ، اصفراره ، ارتعاش الجسم ، وقوف شعر الرأس . . . وهلم جرا) . — وتختلف هذه التعبيرات فى موعد ظهورها . فأول ما يظهر من أنواعها الصوتية هى الأصوات الدالة على الألم الجسمى وعن الجوع ... وما إلى ذلك ، ثم تظهر بعد ذلك (فى أواخر الشهر الثانى تقريباً) الأصوات المعبرة عن الألم النفسى كأصوات الحزن والإخفاق وضيق الصدر . .. ، أما الأصوات المعبرة عن الحالات السارة جسميها ونفسيها كالفرح والطمأنينة والارتواء والشبع فلا تبدو إلا فى منتصف هذه المرحلة أو فى أواخرها . — وتسير التعبيرات الحركية فى مواقيت ظهورها على سنن قريب من سنن التعبيرات الصوتية .

ويبدو لدى الطفل كذلك فى هذه المرحلة مظاهر « التعبير الوجدانى الإرادى » . فكثيراً ما يتعمد الصبى فى شهوره الأولى محاكاة تعبيره الطبيعى ليقف المحيطين به على حالة وجدانية متلبس بها أو ليحملهم على تحقيق رغبة من رغباته (يتعمد مثلا الصراخ أو البكاء ليقضى له مطلب ما) .

ويبدو لديه كذلك فى أواخر هذه المرحلة بعض مظاهر من التعبير عن المعانى عن طريق الإشارة . فكثيراً ما يلجأ إلى الإشارات اليدوية والجسمية للتعبير عما يهمه التعبير عنه . كأن يمد يده ويضم

أصابع كفه للإشارات إلى شخص بالدنو منه ، وكأن يدفع شخصاً بيده للتعبير عن رغبته فى أن يبعد عنه . . . وهلم جرا .

— ٢ —

المرحلة الثانية من الشهر الخامس إلى أواخر السنة الأولى

وتمتاز هذه المرحلة عن المرحلة السابقة من الناحية الصوتية بظهور نوع رابع من الأصوات وهى أصوات « التمرينات النطقية » أو « اللعب اللفظى » أو « اللغط » التى تكلمنا فيما سبق عن طبيعتها ووظائفها وأسسها [١] . ويتألف معظمها فى المبدأ من أصوات لينة (حروف مد) . ثم تكثر فيها بعد ذلك الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) . وقد تظهر لديه فى هذه المرحلة بعض أصوات يحاول بها محاكاة ما يسمعه فى صورة ما ، كما تقدم بيان ذلك [٢] .

أما فيما يتعلق بأنواع ، التعبير . فلا يظهر منها لدى الطفل فى هذه المرحلة أى نوع جديد . ولكن ترقى لديه الأنواع القديمة التى تكلمنا عنها فى المرحلة السابقة ، وبخاصة الإرادى منها فتكثر

---

(١) انظر صفحات ١٥٤ — ١٥٨ . وقد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس كما سبقت الاشارة إلى ذلك بالتعليق الأول ص ١٥٥ .

(٢) انظر آخر صفحتى ١٥٧ ، ١٥٨ .

محاكاته الإرادية لوسائل التعبير الفطرى ، وتهذب طرق تعبيره بالإشارة ، ويتسع نطاقه ، وتضبط دلالاته .

وفى هذه المرحلة ، بل من قبل هذه المرحلة ، يختزن الطفل فى ذاكرته كثيراً من الكلمات والجمل التى ينطق بها المحيطون به ويفهم مدلولها بدون أن يستطيع محاكاتها . ويساعده على فهمها سياق أعمال المتكلمين وما يصدر عنهم فى أثناء النطق بها من حركات يدوية وجسمية وإشارات إلى ما تدل عليه . فإذا كلف الطفل فى هذه المرحلة أمراً ما (اقفل الباب ، هات الكوب ، ضع لعبتك فى العربة ... الخ) أو طلب إليه الإشارة إلى أحد أعضائه أو أعضاء غيره أو إلى هنة ما (أين أنفك ، فمك ، أذنك ، أبوك ، أمك ، عمك ، سريرك ، لعبتك . . .) ، أدى ما كلفه وأشار إلى ما يطلب إليه تعيينه من أعضاء وأشياء فى صورة تدل دلالة قاطعة على فهمه لما سمع .

وقد ذكر الأستاذ بريير Preyer أن النطق الواضح بالكلام لم يبدأ عند إبنه إلا فى الشهر الثامن عشر ، مع أنه ، منذ الشهور الأخيرة من السنة الأولى ، كان يفهم معظم ما يقال له وما يسمعه .

وذكر الأستاذ جويوم أن ابنته « لويز » كانت تفهم معنى كلمة « بابا » منذ الشهر الثالث ، مع أنها لم تستطع النطق بها إلا فى الشهر السابع ؛ وأن ابنه بول كان فى شهره الرابع يفهم معانى الكلمات الآتية : « بابا ؛ بول (اسمه) ؛ ثدى » ؛ وفى شهره

الخامس كان يفهم كذلك معانى كلمتى « ماما » و « أخيه الأكبر » ، مع أنه فى هذه المرحلة ما كان يستطيع النطق بأية كلمة من هذه الكلمات ؛ وأن نطاق الفهم عند ولديه هذين قد اتسع اتساعا كبيراً فى الشهور الأولى من مرحلة « التمرينات النطقية » ؛ فكان الولد منهما يلوح بيديه تلويح الوداع عندما يقال له Adieu (مع السلامة) كما يلوح الكبار بأيديهم عندما يسمعون هــذه الصيغة من مودعيهم ؛ ويحاول أن يلبى ما يطلب إليه أداؤه بالقدر الذى تسمح به قواه الجسمية وقدرته على الحركة عندما يطلب إليه أن يرقص أو يجلس أو يقف أو يجىء ... وهلم جرا ؛ ويلبى تلبية صحيحة ما يؤمر به إذا طلب إليه تقبيل أحد أبويه أو الأخذ بلحية والده أو شد شعر رأسه ؛ ويشير إلى الشخص أو الهنة التى يطلب إليه الإشارة إليها إذا قيل له : أين أبوك أو ريموند (أخوه) أو الهرة أو الدجاجة أو الثدى أو المدفأة أو السرير ... وما إلى ذلك ، مع أنهما فى هذه المرحلة ما كانا ليستطيعا النطق بأية كلمة ولا عبارة من هذه الكلمات والعبارات .

وقد لاحظت أنا على ابنتى عفاف ، وهى فى أوائل شهرها السادس ، أنها كانت تفهم معنى كلمة « بوبول » (اسم كنا نطلقه على هرة بالمنزل) . فكانت كلما ذكر أمامها هذا الاسم صوبت نظرها نحو الأرض وأدارته فى نواح كثيرة لتبحث عنها ، فإن

عثرت عليها حدقت فيها وتابعت حركاتها بنظرها مع أنها فى هذا الدور ما كانت لتستطيع النطق بكلمة ما .

هذا ، وفهم الطفل للكلمات والجمل يظهر على صورة تدريجية. وأول كلمات يفهم مدلولها هى الكلمات الدالة على أكثر الأشخاص ملازمة له وأحبهم إليه (بابا ، ماما ، داده . . . الخ) وعلى الأمور الضرورية له (أمبو = الماء ، مم = الطعام . . . الخ) وعلى الأشياء التى تستأثر بانتباهه لغرابتها مثلا . فقد كانت كلمة طيارة من الفوج الأول من الكلمات التى لاحظت أن ابنى إقداماً يفهم مدلولها (ظهر فهمه لمدلولها فى أوائل شهره العاشر) . فقد كنا نجلس به فى حديقة المنزل ، فتحلق بعض الطائرات فوق رءوسنا محدثة دوياً مزعجاً . فاستأثر هذا بقسط كبير من انتباهه وتمكن معنى الكلمة فى ذهنه . فكنا إذا سألناه فى وقت لا طائرة فيه فوق رءوسنا : « فين الطيارةياميمى » = « أين الطائرة ياإقدام » رفع بصره إلى السماء كمن يبحث عنها . وكانت كلمة « باب » (بتفخيم الباءين) من أول الكلمات التى لاحظت أن حفيدى علياً (على عثمان حنفى ابن الدكتور عثمان حنفى وابنتى الدكتورة وفاء) فى أواخر سنته الأولى يفهم مدلولها وينطقها ، وكان يطلقها على سيارتى التى كان مولعاً بها وبركوبها ولوعاً شديداً فى أواخر سنته الأولى .

المرحلة الثالثة : مرحلة التقليد اللغوى

تبدأ هذه المرحلة عند العاديين من الأطفال فى أواخر السنة الأولى أو أوائل الثانية ، وتنتهى فى الخامسة أو السادسة أو السابعة . أما غير العاديين من الناحية اللغوية فقد لا تبدأ لديهم إلا فى أواخر الثانية أو أوائل الثالثة ، ويتأخر تبعاً لذلك موعد انتهائها . وعند بعض الشواذ من الأطفال لا تبدأ إلا فى سن متأخرة جداً ، كما سنذكر ذلك فى الفصل الثالث من هذا الباب . وقد تبدأ فى حالات نادرة فى سن مبكرة جداً. فقد سجل سكوبن Scupin بعض شواهد لها حدثت فى الشهر الثانى ، ولاحظ مثلها جويوم وشترن فى الشهر الثالث ، وداروين فى الشهر الرابع . ولكن ظهورها فى مثل هذه السن نادر جداً ، والشواهد التى تذكر من هذا القبيل غير موثوق بصحتها كل الوثوق .

وفى هذه المرحلة يظهر النوعان الخامس والسادس من أنواع الأصوات السابق ذكرها (محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة بقصد التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها ، ومحاكاة الكلمات بقصد التعبير عن مدلولاتها) .

وبظهور هذين النوعين من الأصوات يظهر نوعان جديدان فى تعبير الطفل : التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة الأصوات الحيوانية وأصوات الأشياء ؛ والتعبير عن المعانى عن طريق محاكاة الأصوات اللغوية (أى عن طريق اللغة) .

وتسير المحاكاة فى هذه المرحلة على أساليب خاصة بعضها يتعلق بالأصوات وبعضها يتعلق بالدلالة . وسنتكلم على كل منها على حدة :

(أولا) الأساليب المتعلقة بالأصوات . ومن أهمها ما يلى :

١ ـ أن الطفل يحاكى فى مبدأ الأمر الكلمات التى يسمعها محاكاة خاطئة ، ولا يزال يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً ، مستعيناً بالتكرار ومعتمداً على مجهوده الإرادى ومستفيداً من تجاربه ، حتى تستقيم له اللغة .

ومظاهر أخطائه فى هذه الناحية كثيرة من أهمها ما يلى :

(١) أنه يغير الأصوات فيحل محل الصوت الأصلى صوتاً آخر قريباً منه فى المخرج أو بعيداً عنه (ويغلب أن يكون قريباً منه) ، فينطق مثلا الكاف تاء (تتاب = كتاب ، الستينة = السكينة . . الخ) ، والشين سيناً (سعر = شعر .. الخ) ، والفاء باء (بيبى = فيفى .. الخ) ، والعين أو الخاء همزة (نئناءة = نعناعة ، نأم = نعم ، أد = خد) ، واللام نونا (نمنة = نملة) ... وهلم جرا ، وقد ينال هذا التغيير معظم حروف الكلمة ، فلا يكاد يبقى فيها شىء من أصواتها الأصلية (ساساته = شوكولاته [١]) .

---

(١) كل هذه الكلمات مأخوذة من لغة ابنتى عفاف فى هذا الدور . وفيفى هو الاسم الذى كنا ناديها به فى المنزل .

ويظل هذا النوع من الخطأ ملازماً الطفل حتى أواخر هذه المرحلة . فقد لازم ابنتى عفاف حتى أواخر سنتها الخامسة ؛ فظلت فى أثناء هذه السنة تجد بعض الصعوبة فى النطق بالشين وتميل إلى قلبها سينا (وكان هذا آخر مظهر لديها من مظاهر الخطأ الذى نحن بصدده) ، وقد بقى كثير من مظاهره فى لغة أولادى إقدام وحزم ونائل ووفاء إلى أواخر السنة السادسة ، وبقى بعض مظاهره ، وهو قلب الراء لاما ، فى لغة ابنى إخلاص حتى أواخر السنة العاشرة[1] .

غير أن نوع الحروف التى ينالها التغيير وكميتها . . . كل ذلك يختلف باختلاف السن .

(ب) أنه يحرف أصوات الكلمة عن مواضعها ، فيجعل اللاحق منها سابقاً والسابق لاحقاً .

ويلازمه هذا النوع من الخطأ مدة طويلة . فلم تتحرر منه ابنتى عفاف إلا فى أواسط السنة الرابعة . ففى الشهر الخامس من سنتها الزابعة كانت لاتزال تقول « إمسو » بدل اسمو (اسمه) ، و « جمزة » بدل جزمة (حذاء) ، « أحبسوا » بدل أحسبو (أحسبه) ... وهلم جرا . ولم يتحرر منه ابنى إقدام إلا بعد أن أتم سنته الرابعة . ومن مظاهره لديه « إمسو » بدل اسمه و « جمزة » بدل جزمة . « حمز » بدل حزم ، (اسم أخته الصغيرة) .

---

(١) هم أولادى : الأستاذة عفاف بإدارة جامعة الاسكندرية ؛ والعقيد إقدام بالقوات المسلحة ؛ والدكتورة حزم مدرسة علم النفس بجامعة الأزهر ؛ والملازم أول نائل الشهيد فى حرب ٦٧ ؛ والدكتورة (طبيبة) وفاء ؛ والدكتور (طبيب) إخلاص . (غرة رمضان ١٤٠٠ هـ ١٣-٧-١٩٨٠ م) .

(ح) لا ينطق بجميع أصوات الكلمة بل يكتفى بلفظ بعضها (تت = تحت ، دى = منديل ... الخ) .

وترجع هذه الأخطاء الصوتية جميعها إلى ضعف أعضاء النطق عند الطفل فى مبدأ هـذه المرحلة ، وضعف إدراكه السمعى وذاكرته السمعية ، وقلة المران ، وتأثر عناصر الكلمة بعضها ببعض ... وهلم جرا .

وكلما تقدمت به السن واشتدت أعضاء صوته ودقت حاسة سمعه وقويت ذاكرته حسن نطقه وقلت أخطاؤه . ويعينه فى هذه السبيل ما يبذله المحيطون به من جهود لإصلاح نطقه : إذ يكررون له الكلمة عدة مرات ؛ أو ينطقونها على مهل متميزة الحروف ؛ أو ينطقونها بصوت مرتفع ... وما إلى ذلك .

وإلى الأخطاء السابقة وما إليها يرجع السبب فى صعوبة فهم حديثه على غير المحيطين به . وقد خيل إلى بعض الباحثين أن الطفل يخترع اختراعاً بعض كلمات فى مبدأ هذا الدور . والحق أن الطفل لا يأتى بجديد من عنده ، وأن الكلمات التى يظن أنها من اختراعه ترجع جميعها إلى كلمات تقليدية : فبعضها محاكاة محرفة كثرت فيها الأخطاء السابق ذكرها حتى بعدت عن أصلها بعداً كبيراً ؛ وبعضها محاكاة صحيحة لكلمات يتعمد بعض الملازمين للطفل أن ينطقوا بها نطقاً محرفاً يتفق مع طريقة نطقه ؛ فهذه الكلمات هى من اختراع الكبار لا من اختراع الطفل .

٢ — يولع الطفل فى مبدأ هذه المرحلة بما كان مولعاً به فى المرحلة السابقة من تكرار المقاطع والكلمات عدة مرات (بابابابا = بابا أى الوالد ، ماماماما = ماما أى الأم . . . وهكذا معظم الكلمات) . وهذا راجع إلى أسباب كثيرة . منها أن الطفل يحاول بذلك أن يثبت الكلمة فى ذاكرته ويمكن لها من أعضاء نطقه حتى يسهل عليه حفظها والنطق بها فيما بعد عند الحاجة إليها . ومنها أن النشاط الحركى يتجه دائماً إلى الأشكال المماثلة والأوضاع المتشابهة . ومنها أن وقف الحركة فجأة يتطلب مجهوداً أكبر من المجهود الذى يتطلبه استمرارها ؛ فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته إلى أخف المجهودين (وإلى هذا يرجع السبب فى حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار أحياناً وخاصة حينما يسرعون فى كلامهم) . ومنها أن الطفل المبتدىء فى الكلام عندما يلفظ كلمة ما ، يحدث لديه صوتها احساساً سمعياً يرتاح إليه ويتلذذ بوقعه ، فيكرر الصوت ليتكرر احساسه هذا ؛ كما أن احساسه صوت طبلة دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه إلى تكرار الدق والرمى ليكرر نفس الصوت فيتكرر احساسه به ؛ وهذا مظهر من المظاهر التى أطلق عليها العلامة بلدوين « تقليد الطفل لنفسه » أو « التفاعل الدائرى عند الطفل » .

٣ — وفى مبدأ هذه المرحلة يضع الطفل ، فى معظم الكلمات التى يقلدها ، نفس الأصوات التى كان يغلب عليه تكرارها فى

مرحلة « التمرينات النطقية » . فإذا كان فى تمريناته النطقية يغلب عليه تكرار مقطع « با » مثلا ، فإنه يضعه فى معظم الكلمات التى يحاول محاكاتها فى فاتحة تقليده اللغوى . فيقول مثلا : (باد) (قاصداً « أحمد ») و « باب » (قاصداً « كتاب ») و « باية » (قاصداً « طاقية ») و « باسى » (قاصداً « كرسى ») و « باريت » (قاصداً « بسكويت ») . . . وهلم جرا . — وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس « مقاومة القديم للجديد » أو « آثار العادات اللغوية » . — ويبدو فى صورة أشد وضوحاً عند الكبار إذ يتعلمون لغة أجنبية أو يحاكون ألفاظها فيستبدلون بما تشتمل عليه هذه اللغة من أصوات لا عهد لهم بها أصواتاً شبيهة بها من أصوات لغتهم .

٤ — وفى مبدأ هذه المرحلة تكثر فى لغة الطفل أصوات اللين (حروف المد) وتقل الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة). فيحذف بعض الأصوات الساكنة من الكلمة ويقحم عليها أصواتاً لينة غريبة عنها (كابا = كلب ؛ باتى = برنيطة ، أى قبعة .. الخ).

٥ — وفى أوائل هذه المرحلة (فى أواخر السنة الأولى) يظهر لدى الطفل ما يصح أن أسميه « بالمحاكاة الموسيقية للعبارات » ، فيحاكى الطفل أحياناً بعض العبارات التى يسمعها مجرد محاكاة موسيقية بأن يلفظ أصواتاً مبهمة تمثل فى توقيعها الموسيقى أصوات العبارة التى يريد محاكاتها بدون أن تشتمل على كلماتها ، كما تحول قطعة شعرية إلى قطعة موسيقية . وقد لاحظت هذا على أولادى

عفاف وإقدام وحزم ونائل ووفاء وإخلاص وعلى حفيدى على عثمان حنفى ابن ابنتى الدكتورة وفاء . ولم أعثر على أحد ، من بين من اطلعت على مؤلفاتهم ، قد لاحظه من قبلى .

٦ — وفى مبدأ هذه المرحلة يسير الطفل ببطء كبير فى محاكاته ، فقد تمضى أشهر بدون أن يستطيع النطق بأكثر من بضع كلمات مع أنه يكون فاهماً لمعظم ما يسمعه وما يقال له ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك[١] ، ثم تنحل عقدة لسانه مرة واحدة ، وحينئذ يسير فى هذه السبيل بخطى حثيثة لدرجة يصعب معها على من يلاحظه أن يحصى ما يدخل فى متن لغته كل يوم من كلمات جديدة. فمن مبدأ هذه المرحلة إلى أوائل الشهر الرابع من السنة الثانية ، لم تكن ابنتى عفاف لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهى « بابا » ، ثم زاد متن لغتها كلمتين أخريين وهما : « بو » = أمبو (أى طلب الشراب) ، و « كانى » = تانى (تطلب بذلك تكرار الشىء مرة ثانية) . وفى أوائل الشهر الخامس من السنة الثانية زاد متن لغتها كلمة رابعة وهى « ماما » ، وفى أوائل السادس كلمتين وهما « كاكا » (كانت تطلقها على الدجاجة والحمامة سواء أكانتا حيتين

---

(١) انظر صفحات ١٦٦ — ١٦٨ . وقد ذكر العلامة شترن أن أحد أبنائه ، وسنه خمسة عشر شهرا ، كان عدد الكلمات التى يفهمها ثلاثة أضعاف الكلمات التى يستطيع النطق بها . وأنه لما بلغ العشرين شهرا ما كان يستطاع حصر الكلمات التى يفهمها ، على حين أن الكلمات التى كان ينطق بها حينئذ كانت محدودة .

أم مطهوتين) و « نأ » بسكون الهمزة = لأ (علامة النفى) ، وفى أواخر التاسع كلمتين وهما : « ننَّا » (أى النوم) و « إث » = إرش (أى قرش) ، وفى أواخر العاشر ثلاث كلمات وهى « أنـناه » الله ! (ما أحسن هذا !) و « توتو » (أى الكلب) و « نمنة » = نملة ؛ ومن أواخر الحادى عشر من السنة نفسها (السنة الثانية) انحلت عقدة لسانها وأصبح من الصعب متابعتها وإحصاء ما يجد فى متن لغتها من كلمات . — وفى أواخر الشهر الحادى عشر لم يكن ابنى إقدام ليستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهى « بو » = أمبو = الماء أو الشرب ، ثم زاد متن لغته كلمة ثانية وهو « بابا » ، ثم كلمة ثالثة وهى « تاته » بمعنى المشى (كنا نكرر له هذه الكلمة فى أثناء تدريبه على المشى) ، ثم كلمة رابعة فى الشهر الثانى من سنته الثانية وهى « ماما » ، ثم كلمتين أخريين فى الشهر السادس من سنته الثانية ، وهما « مم » = الطعام أو الأكل ، و « كخ » (الشيء الرديء الذى لا يصح لمسه أو العمل القبيح الذى لا يصح الإتيان به). وفى أوائل السنة الثالثة كان متن لغته يتألف من نحو خمس عشرة كلمة فقط ، ثم انحلت عقدة لسانه مرة واحدة فأخذت لغته تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وكذلك كان شأن ابنتى حزم . فى الشهر الخامس من سنتها الثانية (مارس سنة ١٩٤٣) . كان متن لغتها يتألف من إحدى عشرة كلمة فقط : وقد ظهرت لديها على الترتيب التالى : « تاتا » أى

المشى ؛ « بابا » أى الوالد ؛ « مم » أى الأكل ؛ « ماما » أى الوالدة ؛ « نَنَّا » نينة أى جدتها ؛ « دَدَّا » أى الحذاء الذى تلبسه وهى تمشى (كانت تسمى المشى نفسه تاتا) ؛ « نَنْ » أى النوم ؛ « أدَّا » أى فيفى (وهى أختها عفاف) ؛ « دَدْ » أى تحت (وكانت تقولها حينما تطلب نزولها إلى الدور الأسفل من المنزل أو إلى حديقته) ؛ « أمَّا » أى أحمد الخادم ؛ « أوم » « كانت تلفظها هكذا ôme) وتعنى بها قم وتقولها عندما تطلب إلى أحد أن يقوم لغرض ما تريده ، ويفهم هذا الغرض من سياق الحال [١] . وفى أوائل سنتها الثالثة انحلت عقدة لسانها وأخذت لغتها تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وقد سار ابنى نائل فى تطوره اللغوى على نفس الوتيرة التى سار عليها إخوته عفاف وإقدام وحزم ، مع اختلاف يسير فى المفردات التى كان يتألف منها متن لغته فى كل مرحلة من المراحل . ولم تكد تنحل عقدة لسانه وتغزر كلماته إلا فى أوائل السنة الثالثة .

أما ابنتى وفاء ، فقد انقضت سنتها الأولى ومتن لغتها لا يتجاوز كلمتين اثنتين : إحداهما « الله » (والغالب أنها ترددها بدون فهم معناها ، وقد علقت بذهنها من كثرة تكرارها أمامها لاستحسان أمر ما) ؛ وثانيهما « بابا » (وترددها على الأخص عند رؤيتى أو

(١) من الغريب أن ظهرت لديها فى هذا الدور المبكر هذه الكلمة التى تدل على فعل الأمر . وفى معظم كلماتها السابقة كانت تقلد أخاها اقداما فى مخارج حروفه .

سماع صوتى ، وهذا يدل على فهمها لمعناها ، وقد ظهرت لديها بعد الكلمة الأولى) .

وقد بلغ الآن (نوفمبر ١٩٧٠) حفيدى على ابن الدكتور عثمان حنفى وابنتى الدكتورة وفاء سنة وستة أشهر ومتن لغته لا يتجاوز ست عشرة كلمة محرفة تحريفاً كبيراً عن أصولها وهى : دَدًّا (جده) ؛ تِتُّو (سته أى جدته) ؛ بابا (أبوه) ؛ ماما (أمه) ؛ نانى (أمانى ابنة خالته حزم) ؛ جُجَّة (إقدام خاله ، وكان يطلقه كذلك على خاله إخلاص) ؛ بَهْبَهْ (بَهيَّة خادمته) ؛ باب (بتفخيم الباءين أى السيارة وكان يطلق هذه الكلمة فى أول الأمر على سيارتى التى كان مولعاً بها وبركوبها ولوعاً كبيراً ، ثم أخذ يطلقها على كل سيارة ، وعلى لعبه من السيارات) ؛ مَمْ (الأكل وما يؤكل) ؛ بو (أمبو أى الشرب وما يشرب) ؛ نَنْ (النوم والاختفاء) ؛ تاتا (المشى) ؛ تَتَّا (الحذاء) ؛ تُتَّه (القطة) ؛ كاكا (الدجاجة وما يشبهها ولحوم الطيور) ؛ آتا (هات يكرره حينما يريد إحضار شىء له ، ومن الغريب أن هذا الفعل كان من أوائل الكلمات التى ظهرت لديه) .

٧ — وفى أواسط هذه المرحلة وآخرها تصل قوة التقليد اللغوى عند الطفل ، فى مهارتها ودقتها ونشاطها وغزارة محصولها وأهميتها وسيطرتها على النفس ، إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه قوة إنسانية .

ففى هذا الدور لا يدع الطفل أى كلمة أو جملة جديدة يسمعها أو تطلب إليه محاكاتها بدون أن يحاكيها . وإن عاقه طول جملة عن

تكرارها جميعها ، حاكى ما يعلق بذهنه من كلماتها ، وبخاصة آخر كلمات فيها .

ولا يقتصر على تقليد الكلمات والجمل التى يريده المحيطون به على محاكاتها ، بل يحاكى كذلك من تلقاء نفسه كثيراً من الكلمات التى ترد فى محادثات الكبار على مسمع منه ، حتى الكلمات الدقيقة منها . فقد كنت أتحدث مرة مع أسرة فرنسية فى موضوع علمى على مسمع من طفلة صغيرة لهذه الأسرة ما كانت تتجاوز إذ ذاك الخامسة من عمرها ، فلاحظنا بعد حديثنا هذا أن الطفلة تستخدم فى عباراتها بعض كلمات من المصطلحات العلمية التى كنا نستخدمها فى حديثنا والتى يندر استخدامها فى الحديث العادى .

ويحرص الطفل كل الحرص على ما يحصل عليه من مفردات وعبارات ؛ وكثيراً ما يبلغ به هذا الحرص أن يكررها فى خلوته ويؤلف من شتاتها أغانى وجملا عارية من الدلالة ولكنها كبيرة الأثر فى تثبيتها فى ذهنه .

ولا تظهر مهارة الطفل التقليدية فى هذا الدور فى محاكاة الكلمات والجمل فحسب ، بل تظهر كذلك فى محاكاة الأساليب الصوتية التى يلقى بها الكبار الجمل الإخباريه والاستفهامية والطلبية والتعجبية والزجرية ... وهلم جرا ، وحتى فى محاكاة الحركات الجسمية واليدوية التى تصحب حديثهم .

ولمهارة الطفل فى التقليد اللغوى فى أثناء هذه المرحلة ولشدة ميله إليه ، يستطيع أن يتعلم بسرعة وسهولة عن طريق المحاكاة أية لغة أجنبية إذا أتيحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ، بل يستطيع أن يتعلم بهذه الوسيلة أكثر من لغة أجنبية واحدة . فالأطفال المصريون مثلا الذين يبعث بهم آباؤهم إلى المدارس الأجنبية فى هذا الدور يأخذون عن طريق المحاكاة عن معلميهم ومعلماتهم اللغة التى يتكلمون بها ، ولا يلبثون بعد أمد قصير أن يجيدوا هذه اللغة لدرجة لا يستطيع معها أكبر خبير فى اللغات أن يميزهم من أهلها . والطفل إذا ولد من أبوين مختلفى اللغات أخذ عن كل منهما لغته فيصبح ثنائى اللغة Bilingue . — وإذا أتيح للطفل بصفة دائمة فى هذا الدور سماع أكثر من لغتين أخذها جميعها عن طريق المحاكاة بدون أن يشعر أنه يتعلم ، ووصل فى إجادة كل منها إلى نفس الدرجة التى يبلغها فى لغته الأصلية ، فينشأ متعدد اللغات Polyglotte . ومن أجل هـــذا تختار بعض الأسرات الموسرة لأولادها فى هذا الدور مربيات مختلفات اللغات حتى تنتقل إليهم بالمحاكاة جميع لغاتهن .

ومن الطريف أن الطفل الذى تنتقل إليه عدة لغات عن هذا الطريق يتجه من تلقاء نفسه إلى محادثة كل شخص من المختلطين به باللغة التى أخذها عنه أو التى يعرف أنها لغته بدون أن يشعر أنه يتكلم عدة لغات . فقد روى الأستاذ جويوم أن طفلا أبوه ألمانى وأمه

فرنسية قد أخذ الألمانية عن أبيه والفرنسية عن أمه ، وكان إذا طلب إليه أبوه بالألمانية تبليغ أمر لأمه بلغها ذلك بالفرنسية بدون أن يشعر أنه يترجم إلى لغة أخرى الكلام الذى كلفه أبوه تبليغه .

وفى هذا يختلف الكبار عن الصغار اختلافاً كبيراً . فمهما بذل الكبار فى تعلم لغة أجنبية من جهود ومهما طالت مدة إقامتهم بين أهلها ، فلن يصلوا فى إجادتها من الناحية الصوتية إلى الدرجة التى يصل إليها الصغار فى هذا الدور . والسبب فى هذا راجع إلى أن الطفل يلبى فى محاكاته داعى غريزته ، ويسلك بهذا الصدد طريقاً محبباً إليه ، ويسير على أسلوب يتفق مع ألعابه ، فيسهل عليه بذل المجهود ويؤتى مجهوده أكله . على حين أن الكبير يتعلم اللغة الأجنبية لغاية خارجة عنها ، فيصعب عليه بذل المجهود فى هذا السبيل . هذا إلى أن الكبار قد رسخت لديهم عادات كلامية خاصة وتشكلت أعضاء نطقهم بالشكل الذى يلائمها ، فيصبح من الصعب عليهم مع هذا اكتساب عادات صوتية جديدة مخالفة لعاداتهم الأولى ، وليس الأمر كذلك عند الطفل ، فأعضاء نطقه فى هذا الدور تكون مرنة قابلة للتشكيل بمختلف الأشكال .

وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس « مقاومة القديم للجديد » أو « آثار العادات اللغوية » التى سبق أن أشرنا إليها[١] ،

---

(١) انظر صفحة ١٧٤ .

والتى تظهر آثارها حتى عند الطيور . فقد لاحظ « لودانتك » أن صغار الطيور المغنية إذا نشأت مع فصيلة أخرى غير فصيلتها قلدتها فى غنائها ، وأنها إذا بقيت مع هذه الفصيلة حتى كبرت ورسخت عندها هذه العادة الغنائية صعب عليها بعدئذ تقليد فصيلتها نفسه .

ولمهارة الطفل فى التقليد اللغوى فى هذه المرحلة ، تسرى إليه فى أمد قصير لهجة المقاطعة التى ينتقل إليها أهله . فقد ذكر العلامة « شافر Schaffer » أنه قضى شهرين من إجازته الصيفية بفرنكونيا فلاحظ أن ابنه ، الذى كان يبلغ حينئذ سنتين وثلاثة شهور ، قد سرت إليه لهجة هذه البلدة ، فأخذ ينطق الكلمات الألمانية وفق لهجتهم فى نطقها وأن هذا الأسلوب قد لازمه بضعة أشهر بعد رجوعه إلى بلده . — وذكر الأستاذ « جويوم » أنه قضى مرة إجازته بشرقى فرنسا ، فلاحظ أن أولاده ، الذين كانوا يزيدون فى سنهم عن ابن شافر ، ينطقون حرف الراء الفرنسى R كما ينطق به أهل هذه المقاطعة وكما ينطق بالراء فى اللغة العربية (وهذا يخالف طريقة النطق به فى منطقة باريس . وما إليها ، فأهل هذه المنطقة يلفظونه بين الراء والغين) . — وقد قضيت أنا مرة إجازتى مع أسرة باريسية بقرية من قرى فرنسا تسمى سان كورنتان Saint Corentin متاخمة لمقاطعة نورمانديا فأدهشنى كثيراً أن طفلة صغيرة من هذه الأسرة ، كانت حينئذ فى الخامسة من عمرها ، قد سرت إليها ، بعد بضعة أسابيع من إقامتنا . لهجة هذه القرية ، مع أن

اختلاطنا بأهلها كان قليلا . فأصبح أسلوب حديثها وتركيبها للجمل ونطقها بالكلمات مطابقاً لأسلوب حديثهم وتراكيبهم ونطقهم . وظهر هذا لديها فى مخارج الأصوات وطريقة النطق ببعض حروف المد . فقد استحال مثلا صوت المد الفرنسى oi (وا) فى لسانها إلى صوت واو ممدودة بالألف الممالة wai كما كان شأن لسان أهل هذه القرية (فكلمة Poire مثلا كانت تنطقها Pwaire ، وكذلك كل الكلمات المشتملة على صوت oi) . وعبثاً حاولنا إصلاح ما أصاب نطقها من لحن وتحريف ، فإنها لما شعرت بامتعاضنا من طريقتها وسخريتنا بها كانت تجتهد فى أثناء كلامها معنا أن تكون باريسية اللهجة ، فإذا خلت إلى أطفال هذه القرية أو كبارهم عادت إلى طريقتها . وبقيت آثار هذه اللهجة فى حديثها بضعة أسابيع بعد عودتنا إلى باريس .

٨ — ولا يقتصر نشاط الطفل التقليدى فى هذه المرحلة على الأصوات اللغوية ، بل يمتد كذلك إلى ما عداها من الأصوات ، كأصوات الحيوان والطيور ومظاهر الطبيعة والأصوات الشاذة وأصوات المصابين بعاهات فى النطق والأصوات التى تحدثها الأفعال كأصوات الضرب والقرع والسقوط ... وما إلى ذلك . وهم فى هذه الناحية كذلك أمهر من الكبار . فقد لاحظ العلامة تين Taine أن الأطفال فى هذه المرحلة أدق وأمهر من الكبار فى محاكاة أصوات الحيوانات فى صورتها الطبيعية . وذكر العلامة جوتمان

أنه كان يتدرب على « فن التكلم الجوفى Ventriloquie » (وهو معالجة النطق فى صورة تشعر السامع أن الكلام صادر من بطن المتكلم أو من شخص آخر غيره . وقد مهر فيه كثير من المشعوذين الذين يحاولون إيهام الناس أن الجن تلابسهم وتنطق من جوفهم) فأدهشه أن ابنه الصغير ، الذى لم يكن يتجاوز حينئذ الثانية من عمره قد سبقه كثيراً فى هذا المضمار بمجرد سماعه لمحاولات أبيه .

هذا ، ويبدو أن اتجاه الطفل لمحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التى تحدثها الأفعال يظهر قبل اتجاهه إلى محاكاة الكلمات . فقد كان فى استطاعة ابنتى عفاف فى الشهر الثالث من سنتها الثانية (٣٥/٤/٩) أن تحاكى صوت طائفة كبيرة من الحيوان ، مع أنها إذ ذاك لم تكن لتستطيع النطق إلا بكلمة واحدة وهى « بابا » . وقد كان فى استطاعة ابنى إقدام فى الشهر الثانى من سنته الثانية أن يحاكى أصوات كثير من الحيوانات والأشياء للإشارة إليها (« فو » — الطيارة أو السيارة ؛ « آاْ » — الدجاجة ، « أاْآ » — الضرب . . . الخ) مع أنه فى هذه المرحلة ما كان يستطيع النطق إلا بأربع كلمات .

ويسلك الطفل فى تقليده لهذا النوع طريقتين : إحداهما أن يلفظه فى صورته الطبيعية أى فى أصوات مبهمة ، وفى هذه الطريقة على الأخص تظهر مهارة الطفل ؛ وثانيتهما أن يمثله فى أصوات

ذات مقاطع وأصوات مد (« ماء » لثغاء الخروف ، « كاك » لصوت الدجاجة ، «هَوْ هَوْ» لنباح الكلب . . . وهلم جرا) .

(ثانياً) ومن أهم الظواهر المتعلقة بالدلالة فى هذه المرحلة الأمور الآتية :

١ — على الرغم من أن فهم الطفل لمعانى الكلمات يبدو لديه فى المرحلة السابقة لمرحلة التقليد كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[1] ، فإن درجة فهمه تظل مدة طويلة ضعيفة وغير دقيقة — ويبدو هذا فى مظاهر كثيرة أهمها ما يلى :

(ا) أنه فى أوائل هذه المرحلة يستخدم الكلمات القليلة التى يستطيع النطق بها استخداماً واسعاً يدل على عدم دقته فى فهم مدلولاتها ؛ فيحمل كلا منها من المعانى أكثر مما تحتمله ، ويعبر بها عن جميع ما يرتبط بمعناها الأصلى برابطة ما ؛ وقد يتجاوز هذا كله فيعبر بها عن أمور لا صلة لها مطلقاً بمعناها الأصلى . فيطلق مثلا « كاكا » على الدجاجة ، والطبق الذى تقدم فيه ، والطاهى الذى يعدها ، وغرفة الطهو التى تعد فيها ، والسكين الذى تذبح به ، والقفص الذى تحبس فيه ، والبيضة التى تبيضها . . . ؛ وقد يتجاوز هذا كله فيطلقها على شىء أجنبى عنها كالمكتب مثلا لأدنى ملابسة فى ذهنه أو لاضطراب معناها لديه . — وقد لاحظت أن ابنتى

---

(١) انظر صفحات ١٦٦ — ١٦٨ .

عفاف فى أوائل سنتها الثالثة تطلق كلمة « نِنَّـــا » على النوم وما يشتق منه ، وعلى جميع الأمور التى تشبهه أو تمت إليه بصلة ، فكانت تطلقها على السرير ، وعلى الاختفاء فتقول « الكاكا ننا » قاصدة التعبير عن اختفاء الدجاجة عن الأنظار ، وعلى البعد والإبعاد فتقول « ماما ننا » معبرة عن رغبتها فى أن تبعد أمها عن مجلسنا ، وعلى حفظ الشىء بعد الفراغ من استخدامه فتقول « فوطة ننا » أى أن المشوش (الفوطة) قد انتهت الحاجة إليه وحفظ فى المكان المعتاد حفظه فيه . وكانت تطلق لفظة إمَّة = عمة (أى عمامة) على العمامة وعلى الشخص الذى يلبسها .

وهذا التوسع فى الاستعمال لا ترجع أسبابه دائماً إلى ضعف الفهم وعدم الدقة فى إدراك المدلولات ، بل ترجع أحياناً إلى ضآلة محصول الطفل فى الكلمات فى ذلك العهد وحاجته إلى التعبير على أى وجه ، وترجع أحياناً إلى الأمرين مجتمعين .

(ب) أنه فى أوائل هذه المرحلة يطلق اسم الجنس على غير أفراده لأدنى مشابهة . فقد لاحظت أن ابنتى عفاف كانت إلى أواخر السنة الثانية تطلق « كاكا » (ومعناها الأصلى فى لغتها الدجاجة) على الدجاج والحمام والإوز والبط ... وما إليها ؛ وكلمة « ماء » (ومعناها الأصلى فى لغتها الخروف) على الخروف والحمار . . . وما إليهما ؛ و « ماما » على جميع السيدات و « بابا » على جميع الرجال . . . وهلم جرا .

وكلما تقدمت السن بالطفل وكثر محصوله اللغوى ، يدق فهمه ، وتتحدد معانى الكلمات فى ذهنه ، فتتخلص من المدلولات الأجنبية التى كانت عالقة بها ، وتتميز لديه الأجناس بعضها من بعض ، فيطلق على أفراد كل منها اسمها الخاص بها .

٢ — وفى أوائل هذه المرحلة تبدو لغة الطفل عارية عن الصرف والاشتقاق . فكل كلمة من كلماته تلازم شكلا واحداً . وتدل فى شكلها هذا على جميع ما يشتق منها ويتصل بها . وبتقدم الطفل فى هذه المرحلة يدرك العلاقة بين تغير بنية الكلمة وتغير معناها أو زمنها ، فتظهر حينئذ عناصر الصرف والاشتقاق فى لغته .

٣ — وفى مبدأ ظهور هذه العناصر يميل الطفل إلى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات . فتراه مثلا يتبع طريقة واحدة فى التأنيث ، فيقول خروف وخروفة وحصان وحصانة كما يقول كلب وكلبة .

٤ — يفتتح الطفل هذه المرحلة بالنطق بكلمات مفردة قاصداً بها التعبير عما نعبر عنه بالجمل . فيقول مثلا « باب » قاصداً افتح الباب و « شباك » قاصداً اقفل الشباك و « عصا » قاصداً اضرب القط بالعصا ... وهلم جرا . ويفهم غرضه من السياق والظروف المحيطة به والإشارات اليدوية والجسمية التى تصحب كلامه .

ويختار الطفل عادة للتعبير عن الجملة الكلمة التى يجيد النطق بها

أو الكلمة التى تسبق غيرها إلى لسانه ، ولو لم تكن ذات أهمية فى المعنى الذى يريد تقريره . فمن ذلك ان ابنتى عفاف وسنها ثمانية عشر شهراً وبضعة أيام (٣٥/٨/٢) كانت تسير القهقرى ، فعثرت فى طبق كان يوضع فيه اللبن لهرتها وأولادها الصغار ، وكاد يختل توازنها ، ولما تبين لها السبب فى عثرتها قالت « بو » (بو = أمبو = الشراب) ، أى إن السبب فى ذلك هو الطبق الذى تشرب فيه الهرة وأولادها لبنها .

ثم ترتقى لغة الطفل بهذا الصدد فتصبح ثنائية الكلمات (عفاف فى أوائل السنة الثالثة : « ماء مم » أى الخروف يأكل ، « ماما ننا » أى يجب أن تغادر ماما هذا المكان . . .). وبعد ذلك بقليل تصبح لغته ثلاثية الكلمات) عفاف فى الشهر الرابع من السنة الثالثة : « ماما أوه إنا » = ماما ألم هنا ، (مشيرة إلى رقبة والدتها ، أى إن برقبة أمها ألماً أو مرضاً) .

أما تركيب الجمل تركيباً كاملا فلا يصل إليه الطفل إلا فى أواخر هذه المرحلة .

٥ — وفى مبدأ ظهور الجمل فى لغة الطفل تبدو عارية عن الروابط والحروف ، ويبدو تركيبها ساذجاً ، وتبدو كلماتها بدون تنسيق ولا ترتيب فيوضع بعضها بجانب بعض كيفما اتفق . ومن نماذج ذلك ما قالته ابنتى عفاف فى ٣٦/٧/٢٠ : « أنا نونو

(صغيرة) دده (هكذا . — وقوست ظهرها لتمثـل الحالة التى كانت عليها وهى صغيرة) ماما دز (بز ، ثدى) ساه (شاى) » ، أى حينما كانت صغيرة على هذه الصورة كانت والدتى ترضعنى الشاى فى الثدى الصناعى .

وقد يرتب الطفل أحياناً كلمات جملته بشكل يتفق مع ما لكل منها من أهمية فى نظره ، فيبدأ بأكبرها أهمية ويتدرج حتى ينتهى بأقلها شأناً فيقول مثلا : « عصايا بابا ضرب محمد » قاصداً أن أباه قد ضرب محمداً بالعصا . فيقدم « العصا » لأنها أكبر عناصر الجملة أهمية فى نظره ، فانتباهه قد تعلق بها أكثر من تعلقه بما عداها ، ولأن بيان آلة الضرب هو أهم ما يرمى إليه من جملته ، ثم يتبعها بالكلمة الدالة على الشخص الذى اتصل بها اتصالا مباشراً وقام بتحريكها ، وهو « بابا » ثم يأتى بالكلمة الدالة على أثر تحريك أبيه للعصا وهى « ضرب » ، ويختم جملته بكلمة « محمد » الذى لم يقم بعمل إيجابى فى الحادث الذى يريد الطفل التعبير عنه .

٦ — وفى قسم كبير من هذه المرحلة يتأثر الطفل فى مفردات لغته وتراكيبها وقواعدها بأكثر الأفراد مخالطة له وأحبهم إليه كأمه ومربيته وأخيه الأكبر وأخته الكبيرة ، فتغلب فى لغته مظاهر التقليد لهؤلاء ، حتى إنها لا تكاد تختلف فى معظم هذه المرحلة عن لغتهم . وعن هذا الطريق ينتقل إلى لغة الطفل ويعلق بها بعض أخطاء فى المفردات والقواعد والأساليب ، حتى الأخطاء التى تكون ناشئة

عن خلل فى أعضاء النطق للشخص الذى تغلب عليه محاكاته . وتظل هذه الأخطاء ملازمة للطفل أمداً طويلا ، ومن غريب ما لاحظته بهذا الصدد أن ابنتى « حزم » تعبر عن نفسها بصيغة المذكر ، فتقول مثلا : « أنا نازل ، أنا طالع ، أنا خارج . . الخ » بدلا من « أنا نازلة ، أنا طالعة ، أنا خارجة . . . الخ » ، وهى فى ذلك تحاكى أخاها « إقداماً » فى تعبيره عن نفسه . ومع أننا كنا لا نألو جهداً فى إصلاح طريقتها هذه وإبداء السخرية بها ، فقد ظلت ملازمة لها إلى قبيل بلوغها السنة السادسة .

٧ — وأول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هى أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال[١] ، ثم الصفات[٢] ، ثم الضمائر (ولعدم

(١) لاحظت أن أول نوع من الأفعال ظهر فى لغة ابنتى عفاف كان فعل الأمر . ففى أوائل السنة الثالثة (ابتداء من ٤/٣/٣٦) نطقت بفعل « تعالى » = تعال (أمر بالمجىء) و « استنى » (أمر بالانتظار) وكانت تستعمل هذين الفعلين مسندين للمذكر دائما ولو كان المخاطب مؤنثا ؛ و « أدى » = خذى (أمر بالأخذ) و « آتى » = هاتى (أمر بالاعطاء) وكانت تستعملهما مسندين للمؤنث دائما ولو كان المخاطب مذكرا . ولم يظهر المضارع والماضى فى لغتها إلا فى مرحلة لاحقة لهذه المرحلة . ومثل هذا لاحظته على أولادى اقدام وحزم ونائل وعلى حفيدى على عثمان حنفى . وقد ظهر فعل من أفعال الأمر وهو (أوم=قم) عند ابنتى حزم فى مرحلة مبكرة (فى الشهر الخامس من سنتها الثانية) كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى صفحة ١٧٧ . وظهر فعل من أفعال الأمر عند حفيدى على عثمان حنفى فى منتصف سنته الثانية كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى ص ١٧٨ .

(٢) قد تظهر الصفات عند بعض الأطفال فى مرحلة سابقة لمرحلة ظهور الأفعال ؛ بل لقد لاحظ العلامة بريير Preyer أن أول كلمة نطق بها ابنه =

وجود الضمائر في لغة الطفل فى مبدأ هذه المرحلة نراه يعبر عن نفسه باسمه العلم فيقول مثلا « فيفى مم ») أى فيفى تريد أن تأكل [١]) ، ولا تظهر الحروف وما يشبهها من الظروف والروابط وأسماء الشرط إلا فى منتصف هذه المرحلة أو أواخرها [٢] .

= كانت صفة — والذى لاحظته على ابنتى عفاف أن الصفات والأفعال قد ظهرا لديها فى وقت واحد ، ولكنهما ظهرا متأخرين عن أسماء الذوات ، فى الوقت الذى كانت تنطق فيه بأفعال الأمر التى تقدمت الاشارة اليها فى التعليق السابق كانت تنطق ببعض صفات : فمن ذلك « دح » بمعنى جميل (٣٦/٣/٤) و « أحمح » بمعنى أحمر (وكانت تستعمله فى صيغة المذكر دائما ولو كان الموصوف مؤنثا) و « بيده » أى بيضاء (وكانت تستعملها فى صيغة المؤنث دائما ولو كان الموصوف مذكرا) وقد ظهر لديها فى ٣٦/٧/١١ . ومثل هذا لاحظته على أولادى اقدام وحزم ونائل .

(١) غير أنى لاحظت على ابنتى عفاف أن ضمير المتكلم المنفصل « أنا » قد ظهر فى لغتها يوم ٣٦/١/٢٩ أى قبيل ظهور الصفات والأفعال ، ولاحظت كذلك أنها تستخدمه استخداما صحيحا فلا تعامله معاملة الأعلام كما يفعل بعض الأطفال فى هذه المرحلة بل تستعمله حينما تريد الاشارة إلى نفسها .

(٢) لم تظهر الحروف وما اليها فى صورة واضحة عند ابنتى عفاف إلا فى أوائل الشهر الرابع من سنتها الثالثة . ففى ٣٦/٥/١١ ظهرت « إنا » بكسر الهمزة بمعنى هنا (ماما أوه انا = ماما تشكو ألما هنا مشيرة إلى رقبتها) . وفى ٣٦/٧/١١ ظهر فى لغتها « بئيد » بمعنى بعيد و « ايه ده » أى ما هذا و « ياء النداء » ، (ايه ده يابابا = ما هذا يابابا) .

أما قبل هذا العهد فما كان يوجد فى لغتها من هذه الفصيلة إلا كلمتان ظهرتا ميكرتين قبل أوانهما : احداهما « نأ » بنون مفتوحة فهمزة ساكنة ، بمعنى لا (أداة النفى . — وقد ظهرت فى الشهر التاسع من سنتها الثانية) ؛ وثانيتهما « نأم » بنون مفتوحة فهمزة ساكنة فيم ، بمعنى نعم (أداة الايجاب. وقد ظهرت يوم ٣٥/١٢/٢٠). =

ولذلك تظهر جمـــل الطفل فى المبدأ عارية عن الروابط والحروف كما سبقت الإشارة إلى ذلك [١] .

والسبب فى هذا راجع إلى أن الطفل يسير فى ارتقائه اللغوى وفقاً لا رتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكرى فى مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ، ولذلك اقتصر متن لغته فى هذا الدور على أسماء الذوات . فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر فى لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى كلى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما . ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولا ، لم يتح له فهمها إلا فى أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعاً لذلك .

وقد قسم العـــلا مةشترن Stern هـــذا الطريق إلى ثلاث مراحل : سمى أولها « مرحلة المادة » Stade de la substance وهى المرحلة التى تظهر فيها أسماء الذوات ، وسمى ثانيتها « مرحلة

= ومن غريب ما لاحظته على ابنتى عفاف بهذا الصدد أن واو العطف ، مع كثرة تكرارها فى الكلام ومع فهمها لمدلولها قد تأخر ظهورها كثيرا فى لغتها . فقد طلب اليها يوم ٢٦/٧/٣٦ أن تقول للخادمة : « انت كخ وعبيطة » فقالت لها : « انت كخ انت أبيطة » فكررت الضمير بدلا من واو العطف ، ومن الواضح أن تكرارها الضمير دليل على فهمها لمدلول واو العطف .

(١) انظر رقم ٥ صفحة ١٨٨ .

العمل » Stade de l'action وهى المرحلة التى تظهر فيها الأفعال ، وسمى الثالثة « مرحلة العلاقات » Stade des relations وهى المرحلة التى تظهر فيها الحروف والروابط [١] .

٨ — يكثر فى لغة الطفل فى أوائل هذه المرحلة الكلمات المأخوذة عن أصوات الحيوان والأشياء والتى يقصد بها التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها (ماء للخروف ، وكاكا للدجاجة ، وأأ للضرب ، ومم للأكل ... وهلم جرا) . — وقد ثبت أن بعض هذه الكلمات يصل إليها الطفل بنفسه بدون تلقين الكبار .

٩ — يعتمد الطفل فى معظم هذه المراحل اعتماداً كبيراً على لغة الإشارات فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها [٢] . — وقد يستخدمها وحدها فى التعبير عما يود التعبير عنه . ويكثر هذا لديه قبل ظهور اللغة أى قبل دخوله فى مرحلة التقليد ، وفى أوائل هذه المرحلة . فنى أواخر السنة الثانية كانت ابنتى عفاف تقتصر فى التعبير عن كثير من حاجتها على الإشارة اليدوية والجسمية . فمن ذلك أنها فى تعبيرها عن

---

(١) V. Delacroix : Language et Pensée 304, 305.

(٢) من أوضح النماذج بهذا الصدد ما صدر عن ابنتى عفاف (يوم ١٣-٣-٣٦) اذ أشرت فى كتاب فرنسى إلى صورة غزال يرعى الكلأ وطلبت اليها أن تذكر ما تمثله هذه الصورة فقالت « ماء مم » (أى حيوان يأكل) وعززت هذا بأن مثلت هيئة حيوان وحركت فكيها وشفتيها كما تحركها أثناء الأكل . انظر مثالا آخر بصفحة ١٨٨ رقم ٥ .

الفيل كانت تقبض أصابعها ما عدا السبابة وتضع كفها بهذا الشكل تحت شفتيها وتحرك السبابة كما يحركه المصلى فى تشهده ، ممثلة بذلك خرطوم الفيل وحركته . وكانت تستخدم هذه الحركات كلما طلبت الذهاب إلى حديقة الحيوان ، أو سئلت عما رأته بها ، أو طلب إليها بيان ما تمثله صورة فيل ... وهلم جرا . وقد تبلغ لغة الإشارة عند بعض الأطفال شأواً كبيراً ، فيستطيعون التعبير بها عن معان دقيقة وقصص طويلة . فقد أردت مرة (٣٥/١١/٢٢ أى فى أواخر السنة الثانية) أن أشغل ابنتى عفاف عن اللعب فى سريرها لتتفرغ للنوم ، فأخذت أقص عليها بالألفاظ التى تفهمها وبالحركات قصة طويلة تتعلق بأسد كان يأكل قطعة لحم فسقط عليه غراب وضربه بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم وطار بها حتى نزل على شجرة وأخذ يأكلها : فاستأثرت هذه القصة بانتباهها ، وكانت كلما فرغت من مرحلة من مراحلها ، تشير إلى إشارة الفاهم المتتبع لحديثى قائلة : « إيه ، إيه » . وبعد أن فرغت من القصة أخذت أسألها عنها كما يفعل المدرس عقب درس محادثة ، فطفقت تمثل بحركات يديها وفمها أعمال الأسد وهو يتناول غذاءه، ثم حركات الغراب إذ ضرب الأسد بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم ، وإذ طار بها إلى الشجرة . . الخ ، غير مستخدمة فى ذلك إلا بضع ألفاظ ، ككلمة « أأ » التى كانت تعبر بها عن الضرب ، وكلمة « مم » التى كانت تعبر بها عن الأكل .

— ٤ —

المرحلة الرابعة

مرحلة الاستقرار اللغوى

وهى المرحلة الأخيرة فى هذا السبيل ، وتبدأ من سن السادسة أو السابعة أو الثامنة تبعاً لاختلاف الأفراد . وبدخول الطفل فى هذه المرحلة تستقر لغته وتتمكن من لسانه أساليبها الصوتية ، وترسخ لديه طائفة كبيرة من العادات الكلامية الملائمة لطبيعتها الخاصة .

ومن أجل ذلك يشعر الطفل فى هذه المرحلة بصعوبة كبيرة فى تعلم اللغات الأجنبية . وتبدو هذه الصعوبة أوضح ما يكون فى النطق بالكلمات المشتملة على أصوات لا نظير لها فى أصوات لغته . فالطفل المصرى مثلا يجد فى هذه المرحلة صعوبة كبيرة فى النطق بالكلمات الفرنسية المشتملة على حروف p,v u, g, u, eu .. etc ، ويتجه إلى أن يستبدل بها أصواتاً قريبة منها من أصوات لغته .

هذا ولا ينتهى الأمر بلغة الطفل فى هذه المرحلة إلى أن تكون مطابقة كل المطابقة للغة الجيل الذى أخذها عنه ، بل تستقر لديه فى صورة تختلف بعض الاختلاف عن لغة آبائه . ويرجع هذا الاختلاف إلى أسباب كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — النظم والتقاليد التى يسير عليها المجتمع فى تلقين الأطفال اللغة فى الأسرة وتعليمهم إياها فى المدارس . فلا يخفى ما لهذه النظم

من أثر بليغ فى تطور اللغة فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، وفى مبلغ اختلافها فى كل جيل عن الجيل السابق له .

٢ — كثرة استخدام الكبار فى جيل ما لبعض المفردات فى غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز ، لدواع اجتماعية خاصة . فقد يكثر استخدام الكلمة لداع من هذه الدواعى فى جيل ما فى ناحية معينة من نواحى دلالتها أو فى معنى مجازى تربطه بمعناه الأصلى بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازى وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلول الكلمة فى ألسنتهم إلى هذا المعنى الجديد . — وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب فى تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية فى الأصل وفيما يعترى المدلولات فى نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء ، على رأسها العلامة هرزوج Herzog ، قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور فى الدلالة [١] .

٣ — التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق (قانون روسلو Rousselot) . فمن المقرر أن هـــذه الأعضاء غير جامدة على حالة واحدة وأنها فى تطور طبيعى مطرد فى بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها وأنها فى كل جيل تختلف عنها فى الجيل السابق له . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء

---

(١) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره فى كتابينا « اللغة والمجتمع » صفحتى ٥٣ ، ٥٤ (الطبعة الثالثة) و « علم اللغة » صفحتى ٢٩٦ ، ٢٩٧ من الطبعة السادسة .

نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم يكن فى بنيتها الطبيعية فعلى الأقل فى استعداداتها ، بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا المباشرين . غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج ، حتى إن آثاره لا تكاد تحس بين جيلين متتابعين ، ولكنها تبدو واضحة كل الوضوح بالموازنة بين جيلين من شعب واحد تفصلهما حقبة كبيرة من الزمن .

ومهما يكن من شىء ، فإن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق أو فى استعدادها ، مهما كان مبلغه ، يتبعه تطور فى أصوات الكلمات ، فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر انسجاما مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق .

ومن ثم لم يكن بد من أن يحدث فى أصوات كل لغة انحراف ما فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، تبعاً لما يمتاز به أولئك عن هؤلاء من خصائص ناشئة عن التطور الطبيعى لأعضاء النطق ، وما تقضى به سنن الطبيعة من اختلاف هذه الأعضاء فى كل جيل عنها فى الجيل السابق له .

وقد جرت العادة بنسبة هذا القانون إلى العلامة « روسلو » ، لأنه وقف قسطاً كبيراً من مجهوده على دراسته ، وتدعيمه بالأدلة القاطعة ، وتحرى حقائقه بطرق الملاحظة والتجربة واستخدام

الأجهزة ، غير أنه لم يكن أول من اهتدى إلى هذا القانون ، فقد سبقه إلى ذلك عدد كبير من الباحثين أشهرهم العلامة هرمان بول Herman Paul .

هذا ولا يقتصر أثر العامل الذى نحن بصدده على تحريف بعض أصوات الكلمة عن مخارجها الأولى ، بل قد يؤدى إلى انقراض الكلمة برمتها انقراضاً تاماً من لغة المحادثة . وذلك أن ثقل الكلمة على اللسان ، أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التى انتهى إليها تطور أعضاء النطق فى جيل ما ، كثيراً ما يعرضها هى نفسها للزوال . وإلى هذا يرجع السبب فى انقراض كثير من الكلمات العربية فى لغات التخاطب العامية فى العصر الحاضر (١) .

٤ — الأخطاء السمعية التى تنشأ عن ضعف بعض الأصوات والتى تؤدى إلى سقوط هذه الأصوات فى أثناء انتقال اللغة من السلف إلى الخلف (قانون روسلو ومييه Rousselot - Meillet) . فقد يحيط بالصوت — وخاصة إذا كان واقعاً فى آخر الكلمة — بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً ، حتى يصل فى عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السميع . فحينئذ يكون عرضـــا للسقوط فى لغة الخلف . وذلك أن معظم

---

(١) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره فى كتابنا « اللغة والمجتمع » صفحات ٥٥ ، ٥٩ (الطبعة الثالثة) ، وكتابنا « علم اللغة » صفحات ٢٦٥ ، ٢٦٨ (الطبعة السادسة) .

الصغار فى هذا العصر لا يكادون يتبينونه فى نطق الكبار . فينطقون بالكلمات مجردة منه ، ولا يفطن الآباء لسقوطه فى لغة أولادهم لنفس السبب الذى من أجله لم يفطن الأولاد لوجوده فى لغة آبائهم .

* * *

ويرجع أكبر قسط من الفضل فى توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الأستاذين روسلو ومييه ، ولذلك تنسب إليهما نظريته .

وعلى هذا العامل يقع قسط كبير من التبعة فى سقوط كثير من الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات فى عدد كبير من اللغات الهندية ــ الأوروبية الحديثة ، وفى سقوط علامات الإعراب من اللهجات العربية الحاضرة [1] .

(١) انظر تفصيل هذا العامل وآثاره فى مؤلفاتنا الآتية : « اللغة والمجتمع » ٥٩ ، ٦١ (الطبعة الثالثة) ، « علم اللغة » (الطبعة السادسة) ٢٧١ ، ٢٧٢ ، « فقه اللغة » (الطبعة السادسة) ١٣٢ .

الفصل الثالث

عوامل كسب الطفل للغة

يتوقف التقليد اللغوى عند الطفل على عوامل كثيرة من أهمها ما يلى :

١ ـ وضوح الإحساسات السمعية وتميزها بعضها من بعض :

يولد الطفل أصم ، ويمتد صممه حتى اليوم الرابع أو الخامس ، وحينئذ تبدو لديه أمارات السمع . غير أن إحساساته السمعية تظل مبهمة إبهاماً كبيراً ويظل عاجزاً عن تحديد مصادرها حتى أواخر الشهر الرابع . ثم ترتقى ارتقاء بطيئاً أوائل السنة الثانية ؛ ثم تدخل فى دور النضج الذى يستغرق أمداً غير قصير .

فبالموازنة بين هذه المراحل والمراحل التى تسير فيها لغة الطفل ، والتى سبق الكلام عنها فى الفقرة السابقة ، يتبين أن ظاهرة التقليد اللغوى تتبع فى رقيها ظاهرة الاحساس السمعى .

أما السبب فى ذلك فلا يحتاج إلى بيان . فالطفل فى تقليده يحاكى ما يصل إليه عن طريق السمع . فمن البديهى أن تتوقف هذه المحاكاة على وجود قدرة السمع لديه وأن تتأثر فى ارتقائها بما ينال هذه الحاسة من دقة وتهذيب .

ولذلك نرى أن من يولد أصم ينشأ أبكم ، ولو كانت أعضاء نطقه سليمة .

٢ — الحافظة والذاكرة السمعيتان — ونعنى بذلك القدرة على حفظ الأصوات المسموعة وعلى تذكرها واستعادتها عند الحاجة إليها .

ولا تبدو هذه القدرة عند الطفل إلا بعد بضعة أسابيع بعد ولادته [١] ؛ وتظل ضعيفة حتى أواخر الشهر الرابع ، ثم ترتقى ارتقاء بطيئا حتى أوائل السنة الثانية ، وحينئذ تبدأ مرحلة نضجها .

فهذا العامل يقطع فى طريق نموه نفس المراحل التى يقطعها العامل الأول ، وتصحبهما فى سيرهما ظاهرة التقليد اللغوى : تظهر بظهورهما وتنمو بنموهما .

أما وجه توقف التقليد اللغوى على هذه الظاهرة فلا يقل وضوحاً عن توقفه على الظاهرة الأولى . وذلك أن الكلمة التى يحاكيها الطفل لا تصبح جزءاً من لغته إلا إذا استطاع حفظها واستعادتها عند الحاجة إلى التعبير عما تدل عليه .

٣ — فهم الطفل لمعانى الكلمات . — على الرغم من أن فهم الطفل لمعانى الكلمات يسبق قدرته على النطق بها كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فإن هذا الفهم شرط ضرورى للتقليد اللغوى وعامل أساسى من عوامل نموه . وقد عرضنا فى الفقرة السابقة لأمور

---

(١) تظهر متأخرة عن موعد ظهور « الذاكرة البصرية » (ذكر الأشياء المنظورة) .

كثيرة تدل على توقف التقليد اللغوى على هذا العامل ، وتثبت أن كل ارتقاء فى تفكير الطفل ودرجة فهمه يتبعه ارتقاء فى تقليده ونمو فى محصوله اللغوى ، وتبين وجوه العلاقة بين الأمرين[1] . ولا أدل على هذا التوقف وهذا التلازم من أن الطفل الذى يولد مصاباً بجنون يحول بينه وبين فهم الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء سمعه ونطقه سليمة .

فالعوامل الثلاثة السابقة مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ؛ والتقليد فى اللغة متوقف عليها مجتمعه فى نشأته وفى تطوره . فعدم ظهوره قبل الشهر الخامس يرجع سببه إلى عدم وجودها قبل هذه السن ؛ وضعفه فى مرحلة « التمرينات النطقية » يرجع سببه إلى ضعفها فى هذه المرحلة ؛ وقوته فى المرحلة التالية (مرحلة التقليد اللغوى) مدين بها الطفل لقوتها فى هذا الدور .

غير أنه قد يحدث عند بعض الأطفال أن يتخلف التقليد عن هذه العوامل الثلاثة . فقد لوحظ أن بعض الأطفال يفهمون فى سن مبكرة كل ما يقال لهم (وفى هذا دليل على توافر العوامل الثلاثة توافراً كاملا) ، ومع ذلك لا تظهر لديهم بوادر المحاكاة اللغوية إلا فى الثالثة أو الرابعة أو الخامسة . ولوحظ كذلك أن بعض الأطفال يتقدمون كثيراً فى السن ولا يتكلمون إلا بمعالجة واستخدام

(١) انظر مميزات الدلالة فى هذا الدور بصفحات ١٨٥ ، ١٩٣ وخاصة ص ١٩٢ وتوابعها

وسائل غير طبيعية مع سلامة أعضاء نطقهم وسمعهم وقواهم الفكرية ، ومع أن سلوكهم فى مرحلة بكمهم هذه يدل على فهمهم لما يوجه إليهم أو يقال حولهم من حديث ، ولوحظ أن هذا التأخر اللغوى يتبعه غالباً تأخر فى المشى عند الطفل .

ويرجع فى الغالب سبب هاتين الظاهرتين معاً (تأخر الكلام وتأخر المشى) إلى خمول محلى فى أعضاء النطق والحركة ، أو كسل طبيعى عام ، أو تراخى الطفل وقلة نشاطه وضعف رغبته فى الاشتراك فى الحياة الاجتماعية .

ولهذا يجدر أن نضيف إلى هذه العوامل الثلاثة عاملا رابعاً ، وهو نشاط الطفل الحيوى وقوة عزمه وإرادته ورغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة .

الفصل الرابع

أثر النظر فى التقليد اللغوى

ترى طائفة من الباحثين — على رأسها الأستاذ « أنوفرووكز Onufrowicz » أن لحاسة النظر دخلا كبيرا فى التقليد اللغوى ، وأن رؤية الطفل لشفتى المتكلم وحركتهما ، وعمله على محاكاة هذه الحركة ، وإخراجه الصوت الذى يتلاءم معها ، كل ذلك يساعده على إجادة عملية التقليد ويذللها له ، وأن هذه الرؤية لا تقل أثراً بهذا الصدد عن العوامل الثلاثة التى ذكرناها فى الفصل السابق .

وأهم الأدلة التى يقدمها هؤلاء على صحة نظريتهم ترجع إلى ما يلى :

١ — أن الطفل فى مبدأ هذه المرحلة لا يستطيع محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له . وهذا دليل على توقف التقليد اللغوى فى مراحله الأولى على الأقل على رؤية شفتى المتكلم وملاحظة حركاتهما .

٢ — أن الأطفال فى مرحلة « التمرينات النطقية[1] » وهى المرحلة السابقة لمرحلة التقليد اللغوى ، يوجهون اهتماماً كبيراً إلى ملاحظة شفتى المتكلم وحركاتهما ، ويحركون شفاههم فى صورة

---

(١) انظر صفحات ١٥٤ وتوابعها و١٦٥ وتوابعها .

يحاولون بها محاكاة ما رأوه بدون أن يلفظوا صوتاً ما . وهذا يدل على أن محاكاة الطفل للآثار المرئية للصوت تسبق تقليده للصوت نفسه ، وتمرنه على هذا التقليد ، وتهيء له عنصراً هاماً من عناصره .

٣ — أن أول كلمات يقلدها الطفل هي الكلمات التي تكثر فيها الحروف الشفوية ، وهي الحروف التي تخرج من الشفتين ويقتضي نطقها تحركهما حركات ظاهرة مرئية تصل إلى الطفل عن طريق حاسة البصر : « بابا ، ماما . . . الخ » ، وفي هذا دليل على أهمية النظر في التقليد اللغوي ، وخاصة في المراحل الأولى لهذا التقليد .

٤ — أن الطفل الأكمه (الذي يولد أعمى) يقضي في كسب اللغة عن طريق التقليد مدة أطول من المدة التي يقضيها في العادة طفل بصير أو طفل طرأت عليه هذه العاهة بعد أن قطع قسما من مرحلة التقليد اللغوي . فللنظر إذن دخل كبير في سير هذا التقليد وتخفيف أعبائه وتيسير عناصره .

٥ — أن الأطفال الذين يولدون صماً يمكن تعليمهم النطق عن طريق محاكاتهم للحركات المرئية التي تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم . فللنظر إذن أهمية كبيرة في عملية التقليد اللغوي ، حتى إنها قد تتم أحياناً بمساعدة النظر وحده وتستغني استغناء تاماً عن السمع .

• • •

وقبل أن نعرض لقيمة هذه الأدلة ، يجدر بنا أن نبين أن النظرية نفسها قائمة على أساس غير سليم .

وذلك أن عملية التقليد اللغوى يتوقف نجاحها على مبلغ مطابقتها للأصل الذى تحاكيه ، وأن هذه المطابقة لا يصل إليها الطفل لأول وهلة ، بل تقتضيه معالجة صوته والعمل بالتدريج على إصلاح ما عسى أن يكون قد وقع فيه من أخطاء ، كما تقدم بيان ذلك [١] . ويتاح للطفل هذا الإصلاح بفضل إحساسه الصوت الذى يلفظه والموازنة بينه وبين الصوت الذى سمعه أو بينه وبين ما يذكره عن هذا الصوت . ولو كان الطفل يعتمد فى تقليده اللغوى على محاكاة ما يراه من حركات الشفتين ، كما تقول هذه النظرية ، لما استطاع سبيلا إلى هذا الإصلاح ، لأنه لا يمكنه أن يرى كيف تتحرك شفتاه هو ، فلا يستطيع أن يعرف إن كانت حركاتهما قد جاءت مطابقة للحركات التى رآها أم غير مطابقة لها ، ولا يستطيع تبعاً لذلك أن يحدد مواطن الخطأ تحديداً دقيقاً ولا أن يصل إلى مطابقة صحيحة .

هذا إلى أن معظم الأصوات اللغوية تعتمد فى مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة كحركات الجوف والحلق والحنك واللسان . فليس فى اللغة العربية مثلا إلا أربعة أصوات شفوية (الفاء والباء والميم والواو) ، بينما تشتمل على أربعة

---

(١) انظر صفحات ١٧٠ — ١٧٢ .

وعشرين صوتاً من الأنواع الأخرى . فلو كان للنظر دخل ما فى التقليد اللغوى لتعذر على الطفل أو صعب عليه محاكاة قسم كبير من أصوات لغته ، أو لكانت محاكاته للأصوات الشفوية أدق من محاكاته لما عداها . وكلتا هاتين النتيجتين لا تتفق مع الواقع فى شيء

* * *

وأما الأدلة التى يعتمد عليها أصحاب هذه النظرية والتى سبق تلخيص أهمها ، فبعضها يتضمن حقائق غير مسلم بها أو غير صحيحة ، وبعضها لا يدل دلالة قاطعة على ما يذهبون إليه ، وبعضها يظهر من تحليله أنه دليل عليهم لا لهم :

١ — فأما ادعاؤهم أن الطفل فى أول مرحلة التقليد اللغوى لا يستطيع محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له . فلا يتفق مع الواقع فى شيء ؛ إذ الحقيقة أن الطفل فى فاتحة هذه المرحلة كثيراً ما يحاكى أصواتاً وكلمات لا يرى مصدرها أو يبعد مصدرها عنه بحيث لا يستطيع أن يرى حركات فمه وشفتيه ، ولا تقل محاكاته إياها فى جودتها عن محاكاته لما يصدر عن شخص مواجه له .

٢ — وأما ما يوجهه الطفل فى مرحلة « التمرينات النطقية » من اهتمام بملاحظة شفتى المتكلم ، فليس ذلك ناشئاً عن رغبته فى تقليد حركاتهما كما يزعم أصحاب هذه النظرية ، وإنما ينشأ عن رغبته فى الوقوف على مصدر الصوت . وهذه الرغبة فطرية قائمة على غريزة

الاستطلاع عند الطفل ، وتبدو حيال جميع الأصوات ، سواء فى ذلك أصوات الأناسى والحيوانات والأشياء ، وتظهر أماراتها لديه من الشهر الرابع ، أى فى نفس المرحلة التى تبدأ فيها « التمرينات النطقية » .

هذا إلى أن الطفل فى هذه المرحلة يميل إلى التحديق فى كل ما يتحرك أمامه ، ويتبعه بنظره ما دام متحركاً ، لا لرغبته فى تقليد حركته بل لمجرد رغبته فى رؤية الحركة وتتبعها . وهذا ضرب مما يسميه علماء النفس « ألعاب الحواس » عند الطفل [١] . وهو قائم كذلك على غريزة حب الاستطلاع . فملاحظة الطفل شفتى المتكلم فى أثناء تحريكهما لا تختلف فى الباعث عليها عن ملاحظته لأية هنة تتحرك أمامه .

٣ — وأما ما يعمله الأطفال أحياناً ، عقب ملاحظتهم لشفتى المتكلم ، من تحريك لشفاههم فى صورة يبدو أنهم يحاولون بها تقليد ما رأوه بدون أن يلفظوا صوتاً ما ، فقد دلت الملاحظات على أن هذه الظاهرة لا تبدو لديهم إلا حوالى الشهر السابع ، أى فى مرحلة « التقليد اللغوى » نفسها أو قبلها بأمد يسير . فالتفسير المعقول إذن لهذه الظاهرة هو أن الطفل فى هذه المرحلة المبكرة نوعا ما يحاول محاكاة الأصوات الجهرية التى يسمعها بأن يلفظها فى أصوات خفية

---

(١) انظر كتابنا « عوامل التربية » صفحتى ١٤١ ، ١٤٢ .

غير مسموعة ؛ ومحاولته هذه هى التى تجعل شفتيه تتحركان حركات مطابقة لحركات شفتى المتكلم أو مشبهة لها . فلسنا إذن بصدد محاكاة مقصودة لحركات الشفتين . بل بصدد محاولة لمحاكاة الصوت المسموع محاكاة خفية يصحبها حتما حركات الشفتين فى صورة غير مقصودة بالذات .

٤ — وأما زعمهم أن أول كلمات يقلدها الطفل هى الكلمات التى تكثر فيها الحروف الشفوية (وهى الحروف التى تخرج من الشفتين ويقتضى نطقها تحركهما حركات ظاهرة مرئية تصل عن طريق حاسة النظر) فزعم غير صحيح . فقد دلت المشاهدات على أن الفوج الأول من كلمات الطفل يتألف من أصوات متنوعة المخارج والصفات [١] .

٥ — وأما ما يظهر لدى الطفل الأكمه من ضعف فى التقليد اللغوى وطول فى المدة التى يقضيها فى كسب لغته بالقياس إلى الطفل البصير ، فلا يرجع سببه إلى عدم رؤية الحركات التى تبدو على شفتى المتكلم كما يدعى أصحاب النظرية التى نحن بصددها ، وإنما يرجع إلى صعوبة فهمه لمعانى ما يسمعه من كلمات . وذلك أن من وسائل هذا الفهم ما لا يتاح الانتفاع به إلا للبصير ، كإشارات المتكلم فى أثناء النطق بالكلمة إلى الشىء الذى تدل عليه ؛

---

(١) انظر صفحات ١٧٠ — ١٧٤ .

وكالحركات اليدوية والجسمية التي تصحب الكلام عادة وتساعد على فهم ما يقصد إليه المتكلمون . وقد تقدم أن فهم معانى الكلمات عامل هام من عوامل التقليد اللغوى [١] . فعدم تمكن الطفل الأكمه من الانتفاع بطائفة من وسائل هذا الفهم ، هو الذى يسبب ضعفه فى هذا الصدد ويؤدى إلى تأخره عن البصير .

٦ — وأما تعليم النطق للأطفال الذين يولدون صما عن طريق أخذهم بمحاكاة الحركات المرئية التى تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم ، فلا ينهض دليلا على صحة هذه النظرية لأسباب كثيرة :

منها أن تعلمهم النطق عن هذا الطريق لا يتاح إلا بتربية مقصودة فى مدارس خاصة ، وبمعالجة طويلة شاقة ، واستخدام وسائل صناعية كثيرة . فلو ترك الطفل الأصم منذ الولادة وشأنه لنشأ أبكم ، ولو لم يكن به أى عطب فى أعضاء نطقه [٢] . وفى هذا دليل على أن الطفل بطبعه لا يعتمد على نظره فى التقليد اللغوى ولا يحاول الانتفاع به إلا إذا أخذ بذلك أخذاً ، ووجه إليه توجيهاً مقصوداً ، ودرب عليه بوسائل صناعية ومعالجة طويلة . وغنى عن البيان أن فى هذا دليلا على أصحاب هذه النظرية لا دليلا لهم .

---

(١) انظر صفحات ١٩٠ — ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) وكذلك الطفل الذى يصاب بالصمم قبل أن يبلغ الرابعة ، أى قبل أن يقارب مرحلة الاستقرار اللغوى .

ومنها أن تعليم الأصم الكلام عن هذا الطريق لا يمكن الشروع فيه قبل سن الثامنة أو التاسعة ، أى بعد انتهاء مرحلة « التقليد اللغوى » ؛ أما قبل ذلك فكل مجهود يبذل فى هذا السبيل يذهب أدراج الرياح ، وفى هذا دليل على أن الطفل لا يتجه مطلقاً ، فى أثناء مرحلة التقليد اللغوى ، إلى الانتفاع بنظره فى المحاكاة اللفظية ، حتى إنه ليتعذر حمله على هذا الانتفاع مهما بذلنا معه من مجهود . وفى هذا أقطع دليل على فساد النظرية التى نحن بصددها .

ومنها أن طائفة كبيرة من الأصوات اللغوية تعتمد فى مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة كحركات الجوف والحلق والحنك واللسان . ولذلك لا يعتمد معلمو الصم على الإحساسات البصرية وحدها ، بل يلجئون كذلك إلى وسائل أخرى كثيرة ، فيحاولون مثلا أن يحس تلاميذهم كمية الهواء الخارجة من فم المتكلم ، أو يطلبون إليهم أن يضعوا أيديهم على حلقومه أو صدره أو طرف أنفه أو قمة رأسه حتى يتاح لهم ، عن طريق حواس أخرى غير النظر ، الذى ظهر عدم كفايته فى هذا السبيل ، إدراك الذبذبات الخاصة التى يحدثها كل حرف فى أثناء لفظه والتى تساعد على تمييزه والنطق به . وحتى الحروف الشفوية نفسها لا يمكن للصم محاكاتها بمجرد نظرهم لما تؤديه فى أثناء النطق بها شفاه أساتذتهم من حركات . وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى كيف تتحرك شفته هو ؛ فلا يمكنه أن يعـــرف إن كانت حركتها قد جاءت

مطابقة للحركات التى يحاول تقليدها أم غير مطابقة لها ، ولا أن يحدد مواطن الخطأ تحديداً دقيقاً ، فيتعذر عليه الوصول إلى مطابقة صحيحة ؛ ولذلك يلجأ معلمو الصم إلى وضع مرآة أمام تلاميذهم ليتمكنوا من رؤية الحركات التى تؤديها شفاههم ومن إصلاح ما عسى أن يكون بها من أخطاء بالقياس إلى الأصل الذى يأخذونهم بمحاكاته .

ومنها أن تعليم الصم الكلام لا يكلل بنجاح ما إلا مع النابهين الذين يمتازون بفرط النشاط وحدة الذكاء وصفاء الذهن وشدة الانتباه وقوة الإرادة ، وتحفزهم إلى ذلك رغبة ملحة فى الكلام . وحتى هؤلاء أنفسهم ينتهى تعليمهم إلى نتائج ضئيلة ، ويخرجون بلغة ناقصة مشوهة . أما من عدا هؤلاء فلا يؤتى تعليمهم هذا أية ثمرة يعتد بها ، ولا يمكن المعلمين ، مهما بذلوا من جهد ، أن يحولوا بينهم وبين لغة الإشارة المحببة إلى طائفتهم .

ومنها أن النتائج التى تتحقق فى تعليم الصم الكلام يرجع قسط كبير من الفضل فى تحققها إلى ما يسمونه « الأنقاض السمعية » ، وهى إحساسات سمعية ضئيلة توجد لدى عدد كبير ممن يظن أن أن صممهم كامل . وقد تبين لمعلمى الصم أهمية هذه « الأنقاض » فوجهوا معظم جهودهم إلى استغلالها والانتفاع بها فى تعليم الصم الكلام .

الفصل الخامس

أساس التقليد اللغوى عند الطفل

يتبين مما ذكرناه فى الفصول السابقة أن التقليد اللغوى عند الطفل يعتمد على ميل فطرى مزود به ، وأن أعمال المحاكاة التى يتجه إليها الطفل بدافع من هذا الميل تنبعث عن قصد وإرادة ، وتشرف قواه الفكرية على أدائها ، وتنظيمها ، وإصلاح فاسدها ، وجعلها مطابقة للأصل ، وفهم مدلولها ، وحفظها ، واستخدامها فيما وضعت له[1] . فأعمال التقليد اللغوى عند الطفل لا تختلف فى أساسها عن ألعابه الراقية كألعاب الاستطلاع والحل والتركيب والتصوير والمقاتلة والصيد والألعاب العائلية والاجتماعية والصناعية والزراعية . . . وهلم جرا[2] . فكلاهما يعتمد على ميل فطرى مزود به الطفل ويتجه إليه بدافع من هذا الميل ، ولكن كليهما كذلك ينبعث عن قصد وإرادة وتشرف قوى الفكر على أدائه وتنظيم عناصره .

غير أن طائفة من الباحثين على رأسها العلامة لودانتك Le Dantec قد ذهبت فى هذا الصدد مذهباً آخر ؛ فزعمت أن التقليد اللغوى عند الطفل عملية آلية مجردة عن القصد والإرادة وعمل الفكر ، ولا تعتمد إلا على أمور جسمية خالصة .

---

(١) انظر صفحات ١٦٩ – ١٩٤ .

(٢) انظر هذه الألعاب فى كتابنا « عوامل التربية » صفحات ١٤٠ – ١٥٠ .

وذلك أنهم يرون أن هناك رابطة طبيعية تربط أعضاء السمع عند الطفل فى هذه المرحلة بأعضاء نطقه فى صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تلفظ بشكل منعكس نفس الأصوات التى تحسها الأعضاء الأولى . فالطفل يردد ما يسمعه بعملية لا دخل فيها لإرادة ولا قصد ولا تفكير ؛ وبحركات تنبعث من تلقاء نفسها عند حدوث ما يثيرها كما تنبعث الأعمال المنعكسة .

وقد أوغل لودانتك فى هذا السبيل حتى زعم أن أعضاء النطق وأعضاء السمع يؤلفان عند الطفل فى هذه المرحلة جهازاً واحداً ترسل ناحية منه ماتستقبله الناحية الأخرى. — فهما أشبه شىء بجهاز المذياع (الراديو) الذى ينبعث من بعض أجزائه ما تلتقطه أجزاؤه الأخرى من أصوات . وطبيعة تركيبها عند الطفل فى هذه المرحلة مطابقة كل المطابقة — كما يقول لودانتك نفسه — لطبيعة تركيبها عند الببغاء وما إليها من الطيور [١] :

ومن ثم يرى لودانتك أن أصوات التقليد اللغوى عند الطفل لا تختلف فى أساسها عن أصوات « التعبير الطبيعى عن الانفعال » التى تكلمنا عليها فى أول هذا الباب [٢] . كلاهما فى نظره فطرى آلى بحت لا دخل فيه لإرادة ولا قصد ولا تفكير . وكلاهما ينبعث

---

(١) انظر الأساس الذى تعتمد عليه المحاكاة عند هذه الفصيلة فى صفحات ٢٦ — ٢٨ .

(٢) انظر صفحات ١٤٩ — ١٥١ .

عن مثير خاص وعن مجرد وجود هذا المثير : فأصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال يثيرها مجرد تلبس الجسم أو النفس بحالة انفعالية ما ، وأصوات التقليد اللغوى يثيرها مجرد تلبس الجسم بإدراك سمعى خاص . وكلاهما قائم على روابط طبيعية فطرية : فأولهما على روابط طبيعية تربط أعضاء النطق بحالات الانفعال بصورة تجعل تلك الأعضاء تتحرك من تلقاء نفسها وتلفظ أصواتاً خاصة كلما وجدت حالة من هذه الحالات ؛ وثانيهما قائم على روابط طبيعية تربط أعضاء السمع بأعضاء النطق فى صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تردد من تلقاء نفسها ما يصل من أصوات لغوية إلى الأعضاء الأولى .

هذا ، وبحسبنا فى الدلالة على فساد هذه النظرية أن نواجهها ببعض ما ذكرناه فيما سبق من حقائق :

فقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يردد الكلمة عند سماعه إياها كما تردد الببغاء ما تسمعه من أصوات ، بل يرددها فاهماً معناها فهماً كاملا أو ناقصاً من سياق الحديث وملابسات الأحوال [١] ، وبعد أن يتم له حفظها وتستقر فى متن لغته يلفظها وحده كلما أراد التعبير عما تدل عليه . وغنى عن البيان أن ظاهرة هذا شأنها ليست من الأعمال الآلية أو المنعكسة فى شىء ، إذ لا يمكن أن يتم مثلها بدون تدخل الإرادة والتفكير .

(١) انظر صفحات ١٦٦ وتوابعها ، ١٨٥ — ١٩٣ .

وقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يكتسب فى هذه المرحلة عن طريق المحاكاة مفردات لغته فحسب ، وإنما يكتسب كذلك قواعدها المتعلقة بربط عناصر الجملة ، وترتيب أجزائها وتنظيم العبارات ، وتصريف المشتقات ، ومراعاة أزمنة الأفعال ، وإسنادها للضمائر والأسماء الظاهرة ، والتذكير والتأنيث ، والإفراد والجمع . . . وهلم جرا[1] . ومن الواضح أن كسب الطفل لقواعد اللغة يقتضى عمليات فكرية وإرادية دقيقة ، ولا يمكن أن يتم شىء منه عن طريق آلى أو منعكس .

وقد ظهر لنا كذلك أن أول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هى أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال ، ثم الصفات ، ثم الضمائر ، ثم الحروف والروابط ؛ وأن السبب فى هذا يرجع إلى أن الطفل يسير فى ارتقائه اللغوى وفقاً لارتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكرى فى مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار إليها . ولذلك اقتصر متن لغته فى هذا الدور على أسماء الذوات . فإذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر فى لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليها . ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولا لم يتم له فهمها إلا فى أواسط

(١) انظر صفحات ١٨٧ — ١٨٩ .

هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعاً لذلك [١] . وفى هذا أقطع دليل على تدخل التفكير والفهم فى عملية التقليد اللغوى وعلى فساد ما يذهب إليه لودانتك ؛ إذ لو كانت هذه العملية آلية أو منعكسة قائمة على مجرد الارتباط بين جهازى النطق والسمع كما يزعم لودانتك لردد الطفل جميع ما يصل إلى سمعه من مفردات ، ولظهرت جميع أنواع الكلمة فى لغة الطفل مرة واحدة .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يولد مصاباً بجنون يحول بينه وبين فهم معانى الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء سمعه ونطقه سليمة [٢] . ولو كانت عملية التقليد آلية أو معنكسة على الوجه الذى يزعمه لودانتك لما حال الجنون دون تحققها ؛ إذ الجنون لا يحول دون تحقق هذا النوع من الأعمال .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل فى مبدأ هذه المرحلة يلفظ الكلمات التى يحاكيها لفظاً خاطئاً بعيداً كل البعد عن الأصل الذى يحاكيه ، وأنه لا ينفك يصلح من فاسد نطقه شيئاً فشيئاً حتى يستقيم له الكلام [٣] . ولا شك أن ظاهرة هذا شأنها فى التطور تقتضى تدخل الإرادة والتفكير ، ولا يعقل أن تكون قائمة على الأساس الآلى الذى يزعمه لودانتك .

---

(١) انظر صفحات ١٩٠ — ١٩٣ .

(٢) انظر صفحة ٢٠٢ .

(٣) انظر صفحات ١٧٠ — ١٧٢ .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يسوده الخمول ، وتعوزه قوة العزم والإرادة ، وتضعف رغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة ، يتأخر كثيراً فى التقليد اللغوى وفى كسب لغته عن الأطفال العاديين [١] . ولو كانت عملية التقليد عملية آلية أو منعكسة على الوجه الذى يراه لودانتك ما حال هذا الخمول دون تحققها ، ولظهرت كلما وجد مثيرها السمعى بدون توقف على عزم ولا إرادة ولا نشاط حيوى .

---

(١) انظر صفحة ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

الفصل السادس

مبلغ تمثيل الطفل فى ارتقائه اللغوى لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها

يذهب كثير من العلماء إلى أن المراحل التى يجتازها الطفل فى أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الإنسانى فى هذا الفرع L'Ontogenèse reproduit la Phylogenèse ويطلق على هذه النظرية اسم نظرية التلخيص أو نظرية هيكيل Haeckel [1].

وعلى هذه النظرية اعتمد كثير من علماء اللغة فى تأييد آرائهم بصدد نشأة اللغة الإنسانية وتطورها.

وقد تكلمنا بتفصيل فى الباب الأول عن أهم هذه الآراء وناقشناها [2]. فحسبنا هنا أن نشير إليها مبينين وجه اعتمادها على الظواهر المتعلقة بتطور اللغة عند الطفل.

١ ــ تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد نشأت من أنواع التعبير الطبيعى ، وأن الإنسان قد افتتح هذا السبيل

---

(١) يرجع الفضل فى نشرها وتكلتها إلى هيكيل الألمانى ولذلك نسبت إليه . وإن كان قد قال بها من قبله العلامة Serres .

V. Traité de Psychotogie, par Dumas et collaborateures, P. 32.

(٢) انظر صفحات ٤٢ ، ٤٣ ، ٥١ — ٦٢ .

بمحاكاة أصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال) وأصوات الحيوان والأشياء [١] .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن الطريق الذى ترسمه لنشأة اللغة الإنسانية يتفق مع الطريق الذى يسلكه الطفل فى تعبيره . فقد ظهر مما تقدم أن أول ما يظهر من أنواع التعبير المقصود عند الطفل هو محاكاة التعبير الطبيعى عن الانفعال ، ثم تظهر بعده محاكاة أصوات الحيوان والأشياء للدلالة على مصادرها أو على أمور تتعلق بها ، ثم تظهر بعدهما محاكاة الكلمات [٢] .

٢ — تقدم أن معظم علماء اللغة يذهبون إلى أن الكلام الإنسانى كان يعتمد فى المبدأ اعتماداً كبيراً على الإشارات اليدوية والجسمية التى كانت تصحبه فتكمل ناقصه وتوضح مدلوله وتمثل حقائقه ، ثم أخذ يستغنى شيئاً فشيئاً عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير [٣] .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن المراحل التى ترسمها تتفق مع المراحل التى تسير فيها لغة الطفل . فقد ظهر مما تقدم أن الطفل ، فى مبدأ مرحلته الكلامية . يعتمد اعتماداً

---

(١) انظر صفحات ٤٠ — ٤٤ .

(٢) انظر صفحات ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٨٣ — ١٨٥ .

(٣) انظر صفحات ٤١ ، ٤٢ .

كبيراً على لغة الإشارات فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها [١] .

٣ — تقدم أن بعض العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية اجتازت ، فيما يتعلق بتطور أصواتها ، ثلاث مراحل : « مرحلة الصراخ » التي كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشياء ومظاهر الطبيعة ؛ ثم « مرحلة المد » وفيها ظهرت أصوات اللين في اللغة الإنسانية ؛ ثم « مرحلة المقاطع » وفيها ظهرت الأصوات الساكنة [٢] .

ومن أهم الأدلة التي يعتمدون عليها في تأييد هذه النظرية أن المراحل التي تذهب إليها بصدد التطور الصوتي في اللغة الإنسانية تتفق مع المراحل التي يجتازها الطفل في هذه السبيل . فقد ظهر مما تقدم أن أول أصوات تظهر لدى الطفل هي الأصوات المبهمة ، ثم تتلوها أصوات اللين ، وأن الأصوات ذات المقاطع لا تكثر في لغته إلا في « مرحلة التمرينات النطقية [٣] » .

٤ — تقدم أن معظم العلماء يذهبون إلى أن اللغة الإنسانية قد

---

(١) انظر صفحتي ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) انظر صفحتي ٥١ ، ٥٢ .

(٣) انظر صفحات ١٥٠ — ١٥٥ ، وما تحيل عليه هذه الصفحات ، وانظر كذلك الخاصة الرابعة من خواص الأصوات اللغوية للطفل في مرحلة التقليد بصفحة ١٧٤ .

بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية وأن الألفاظ الدالة على المعانى الكلية لم تظهر إلا بعد ارتقاء اللغة ونهضة التفكير الإنسانى [١] .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد نظريتهم أنها تتفق مع مراحل التطور اللغوى عند الطفل . فقد تبين مما تقدم أن أول كلمات تظهر عند الطفل هى أسماء الذوات الحسية ثم تظهر بعدها الكلمات الدالة على معان كلية [٢] .

٥ — تقدم أن بعض علماء اللغة يذهبون إلى أن الصفة هى أول ما ظهر فى الكلام الإنسانى ، ثم ظهرت أسماء الذوات ثم الأفعال واختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف [٣] .

ومما يعتمد عليه هؤلاء العلماء فى تأييد نظريتهم موضوع التطور اللغوى عند الطفل . غير أن هذا التطور لا يؤيدهم فيما يتعلق بأسبقية الصفات على أسماء الذوات . فقد ظهر مما تقدم أن أسماء الذوات هى أول ما يظهر فى لغة الطفل ثم تتلوها الأفعال والصفات [٤] .

ولذلك يعتمدون فى هذه النقطة على أمور تتعلق بأصول الكلمات فى اللغات الهندية — الأوروبية كما سبقت الإشارة إلى ذلك [٥] .

---

(١) انظر صفحتى ٥٤ ، ٥٥ وما تحيل عليه التعليقات .

(٢) انظر آخر ص ١٩٠ إلى ص ١٩٣ .

(٣) انظر صفحتى ٥٥ ، ٥٦ .

(٤) انظر ص ١٩٠ إلى ص ١٩٣ .

(٥) انظر ص ٥٦ .

ويرون من جهة أخرى أن أسبقية الأسماء على الصفات فى الطفولة ليست عامة عند جميع الأطفال ؛ بل إن بعضهم ليفتتح نطقه بكلمات دالة على صفات ، ولا تظهر لديه الأسماء إلا فيما بعد . وفى ذلك يقول العلامة بريير Preyer : « ليس صحيحاً ما يذهب إليه كثير من الباحثين من أن ظهور الأسماء سابق لظهور الصفات عند جميع الأطفال . فقد لاحظت أن أول كلمة لفظها ابنى (وكانت سنه إذ ذاك ثلاثة وعشرين شهرا) كانت صفة ؛ فقد قال Hess يقصد Chaud أى ساخن ، (للتعبير عن أن لبنه ساخن لا يستطيع شربه) ثم ظهرت لديه الأسماء بعد ذلك » . وقد لاحظ العلامة تين Taine وآخرون بعض ظواهر من هذا القبيل[١] .

٥ — تقدم أن العلامة شليجيل وأعضاء مدرسته يذهبون إلى أن اللغات الإنسانية الأولى كانت « عازلة » أى لا تتصرف فيها الكلمات ولا ترتبط فيها عناصر الجملة بعضها ببعض بروابط ملفوظة[٢] .

ومن الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد نظريتهم تطور اللغة عند الطفل . فقد ظهر مما تقدم أن لغة الطفل تبدو فى أوائل مرحلة التقليد عارية من الصرف والاشتقاق والتنظيم وربط عناصر الجملة بعضها ببعض[٣] .

---

(١) V. Ridot, op. cit., 74, 85

(٢) انظر صفحات ٥٧ — ٦٢ .

(٣) انظر صفحة ١٨٧ .

الفصل السابع

الانتفاع بحقائق هذا الباب
فى التربية والتعليم

ليس بعزيز على المتأمل فى البحوث النظرية السابقة أن يستخلص منها عدة قواعد عملية للتربية والتعليم اللغويين . وسنذكر فيما يلى بعض نماذج من هذا القبيل :

١ – تقدم أن أول كلمات يستطيع الطفل النطق بها هى الأسماء الجامدة التى تدل على أمور حسية يمكن أن يشار إليها ، وتظهر بعدها الأفعال ثم الصفات ثم الضمائر ثم الحروف ؛ وأن هذا الاتساع التدريجى فى متن لغته يسير جنباً لجنب مع اتساع قدرته على فهم الكلمات [١] .

فالواجب على المربين والمعلمين أن يترسموا هذا الارتقاء الطبيعى ؛ فلا يحملوا الطفل على النطق بالحروف مثلا فى المرحلة التى لا يستطيع فيها فهم مدلولها ، ولا يكلفوه استظهار قطعة مشتملة على معان كلية فى السن التى لا تسمح له فيها قواه العقلية إلا بفهم الجزئيات . . . وهلم جرا .

---

(١) انظر آخر ص ١٩٠ إلى أول ص ١٩٣ .

٢ — تقدم أنه فى مبدأ مرحلة « التقليد اللغوى » ، تسيطر على لغة الطفل علاقة المشابهة ، فيصرف كل الأفعال تصريفه للأفعال التى يعرفها ، ويسمى كل الحيوانات باسم الحيوان الذى حفظ اسمه من قبل ، فيطلق مثلا على البقرة اسم الحصان لما بينهما من الشبه فى القوائم والصورة العامة . . . وما إلى ذلك [١] .

فالواجب على المربين أن يعملوا جهدهم على محاربة هذه النزعة وعلى وقاية لغة الطفل من أضرارها . وذلك بتربية قوة الملاحظة لديه ، وتوجيه نظره بشتى الوسائل إلى ما بين المحسات المتشابهة من وجوه الاختلاف ، والعمل على إصلاح ما يبدر منه من خطأ لغوى بمجرد صدوره منه حتى لا يتكرر فيرسخ لديه ويعتاده .

٣ — تقدم أن كثيراً من الألفاظ الغريبة التى تصدر من الطفل فى أوائل « مرحلة التقليد اللغوى » ، والتى يتبادر إلى الذهن أنها من مخترعاته ، ليست فى الواقع إلا محاكاة صحيحة للكلمات التى يتعمد بعض الملازمين له أن ينطقوا بها نطقاً محرفاً لتدليله ومداعبته [٢] .

فالواجب على القائمين بشئون الطفل فى هذه المرحلة أن يتجنبوا هذه العادة السيئة ؛ فإن محادثتهم إياه بالكلمات المحرفة ترهقه عسراً من أمره ، وتشغل قسطاً كبيراً من وقته الثمين فى حفظ ألفاظ لا قيمة

---

(١) انظر صفحتى ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) انظر آخر ص ١٧٢ .

لها فى مستقبل حياته ، وتحمله على بذل مجهود فى أمور من شأنها أن تفسد نطقه وتعوق سيره اللغوى .

٤ — تقدم أنه فى « مرحلة التقليد اللغوى » يبلغ ميل الطفل إلى محاكاة الكلمات وقدرته على سرعة تقليدها أقصى ما يمكن أن يبلغاه ، وأنه لذلك يستطيع أن يتعلم بسهولة أية لغة أجنبية إذا أتيح له الاختلاط بأهلها بدون أن يكلفه ذلك مجهوداً يذكر ، بل بدون أن يشعر فى أثناء محاكاته لحديثهم أنه يتعلم شيئاً جديداً[١] .

فالواجب على المربين أن ينتهزوا هذه الفرصة الثمينة ليزودوا الطفل بما عسى أن يحتاج إليه فى حياته المستقبلة من لغات أجنبية ؛ وذلك بأن يشركوا معهم فى تربيته المنزلية حاضنات أجنبيات ؛ أو بأن يبعثوا به إلى دور حضانة أو رياض أطفال تشرف عليها حاضنات يتكلمن لغة حية غير لغة أسرته ؛ على أن يتخذوا وسائل الحيطة اللازمة حتى لا يترتب على ذلك أى أثر سيىء فى شعور الطفل بقوميته واعتزازه بوطنه واحترامه لنظم أمته وتقاليدها وعرفها الخلقى .

٥ — تقدم أن الطفل فى « مرحلة التقليد اللغوى » تغلب عليه لهجات الملازمين له والمشرفين على تربيته[٢] .

---

(١) انظر صفحات ١٧٨ — ١٨١ .

(٢) انظر ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

فالواجب على الآباء أن يعنوا بانتقاء الحاضنات ، فيختاروهن ممن حسن نطقهن ، وسمت أساليبهن ، وسلمن من العى والفأفأة والتأتأة واللثغة . . . وما إلى ذلك من العيوب .

٦ — تقدم أن الطفل فى « مرحلة الاستقرار اللغوى » التى تبدأ من السادسة أو السابعة أو الثامنة تبعاً لاختلاف الأفراد ، ترسخ لديه العادات اللغوية ويستقر نطقه وشكل حديثه وصفات تراكيبه وأساليبه ، وأن كل أولئك يجعل تعلمه لغة أجنبية من أشق الأعمال عليه وعلى مربيه [١] .

ومن هذا يظهر ما وقعت فيه نظمنا المدرسية فى العهود السابقة من خطأ إذ قررت تعلم اللغة الأجنبية على تلاميذ المدارس الابتدائية ، وسنهم تتردد بين الثامنة والثالثة عشرة [٢] . فالطفل كما قلنا لا يكاد يتجاوز السابعة من عمره حتى يفقد ما كان لديه من ميل فطرى إلى تقليد الأصوات ، فتكليفه فى هذه المرحلة تعلم لغة أجنبية يقتضيه بذل مجهود جبار لم يقو بعد على بذله . وغنى عن البيان أن فى إرغامه على بذل هذا المجهود إرهاقاً له وتعطيلا لنموه الجسمى والفكرى . هذا إلى أن الطفل فى هذه المرحلة لا يمكن أن يدرك الفائدة التى تعود عليه من تعلم لغة أجنبية ، بل لا يمكن أن يدرك

---

(١) انظر ص ١٩٥ .

(٢) لا تزال بعض المدارس الخاصة تسير على هذا الخطأ إلى الوقت الحاضر ، ويظن المشرفون عليها أن فى ذلك دلالة على رقيها !

مدلول « لغة أجنبية » (أى لسان يتفاهم به شعب غير شعبه) ؛ فلا يمكن أن يهتم بهذا التعليم لذاته ولا لما عسى أن ينجم عنه من فوائد ؛ وبذلك يتجرد عمله عن الغاية ؛ ومتى تجرد العمل عن الغاية أصبح من قبيل « الأشغال الشاقة » التى يحكم بها على المجرمين . —[١] وفضلا عن هذا كله فإن ما يتعلمه من لغات أجنبية فى هذا الدور يزاحم المعلومات الأولية التى يتلقاها عن لغة بلاده ، فيعوق إلمامه بمفرداتها وأساليبها وقواعدها ؛ وفى هذا من الضرر مالا يحتاج إلى بيان .

وقد فطن لهذا معظم الأمم الأوروبية والأمريكية فأرجأت تعليم اللغات الأجنبية فى مدارسها إلى مرحلة التعليم الثانوى .

٧ — تقدم أن عوامل التقليد فى اللغة ترجع إلى أربعة أمور : وضوح الإحساسات السمعية ؛ والقدرة على حفظ هذه الإحساسات وعلى تذكرها عند الحاجة إليها ؛ وفهم معانى الكلمات ؛ ونشاط الطفل الحيوى الذى يتمثل فى عزمه وإراداته ورغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة[٢] .

فينبغى للمربين أن يجعلوا هذه الحقائق نصب أعينهم ، وأن

---

(١) انظر الفرق بين اللعب والعمل فى كتابنا « عوامل التربية » صفحات ١٥٥ — ١٥٨ .

(٢) انظر صفحات ٢٠٠ — ٢٠٣ .

يعلموا أن ما يبذلونه من جهد فى سبيل التربية والتعليم اللغويين يتوقف نجاحه على عنايتهم بهذه الأمور .

فينبغى أن يعنوا بتربية حاسة السمع عند الطفل ، ووقاية أعضائها من كل ما يعوقها عن أداء وظائفها أداء كاملا ، وعلاجها مما عسى أن يكون بها من خلل طبيعى أو مكتسب .

وينبغى كذلك أن يوجهوا عنايتهم إلى النهوض بقوتى الحفظ والذكر عند الطفل ، وإلى تربية إرادته وإثارة نشاطه الحيوى ، وأن يعملوا على أن تكون مدلولات الألفاظ والجمل التى يراد الطفل على محاكاتها جلية فى ذهنه واضحة تمام الوضوح .

انتهت طبعته الرابعة فى شهر المحرم ١٤٠١
الموافق شهر نوفمبر ١٩٨٠

أهم المراجـــع

(أولا) أهم المراجع العربية

١ — ابن السكيت كتاب الألفاظ

٢ — ابن جنى الخصائص

٣ — ابن سيدة المخصص

٤ — ابن سينا أسباب حدوث الحروف

٥ — ابن فارس الصاحبي فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها

٦ — التبريزى تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت

٧ — الثعالبى فقه اللغة

٨ — السيوطى المزهر

٩ — علم اللغة الدكتور على عبد الواحد وافى

١٠ — فقه اللغة الدكتور على عبد الواحد وافى

١١ — اللغة والمجتمع الدكتور على عبد الواحد وافى

(ثانيا) أهم المراجع الإفرنجية

1. Année Pédagogique
2. Année Psychologique.
3. Baldwin : Le Développment mental chez l'enfant et dans la race «trad. fr.»
4. Bally : Le Langage et la Vie.
5. Berry : An Experimental study of Imitation.

6. Bloch : Les Premiers standes du Langage de l'enfant «j. de Psych. 1921».
7. Boas : Handbook of American Indian Languages 2 vols. Washington.
8. Brandenburg : Language development.
9. Bréal : Mélange de Mythologie et de Linguistique.
10. Brockelmann ; Précis de Linguistique Sémitique «trad. fr.»
11. Claparède : Psychologie de l'Enfant . . . etc.
12. Darmesteter : La Vie des Mots.
13. Darwin : L'Expression des Emotions «trad. fr.».
14. Darwin : L'Origine des Espèces «trad. fr».
15. Dauzat : La Philosophie du Langage.
16. Dauzat : La Vie du Langage.
17. Delacroix : Le Langage et la Pensée.
18. Dumas et collaborateurs : Traité de Psychologie
19. Gillieron et Roques : Etude de Géographie Linguistique.
20. Ginneken : Principes de Linguistique Psychologique.
21. Grégoire : Petit Traité de Linguistique.
22. Guillaum : L'Imitation chez l'enfant.
23. Hermann - Paul : Etudes sur les changements phonétiques.
24. Hovelaxque : La Linguistique.
25. Jespersen : Language ; its nature, development and origin.
26. Jespersen : The Progress of Language.
27. Kohler : L'Intelligence de Singes Supérieurs, trad. fr.
28. Leroy : Le Langage.
29. Levy - Bruhl : Les Fonctions mentales dans les Sociétés primitives.
30. Malinowski : Primitive Language.
31. Mallery : Sign — Language among the North American Indians.

32. Marichelle : L'Enseignement de la Parole aux sourd-muets.
33. Meillet : Comment les mots changent de sens (dans l'Année Sociologique. T — IX, P.P. 3—33).
35. Meillet : Introduction à l'Etude Comparative des Langues Indo-Européonnes.
36. Meillet : Les Langues dansl' Europe Nouvelle.
37. Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale.
38. Meillet et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meiller et Cohen) : Les Langues du Monde.
39. Müller (Max) : The Science of Language.
40. Müller (Max) : New Lectures on the Science of Language.
41. Paulhan : La Double Fonction du Langage.
42. Pawlowitch : Le Langage enfantin.
43. Piaget : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant.
44. Renan : Histoire générale des Langues Sémitiques.
45. Renan : L'Origine du Langage.
46. Ribot : L'Evolution des Idées Générales.
47. Roudet : Eléments de Phonétique générale.
48. Rousselot : Les Modifications Phonétiques du Langage.
49. Rousselot : Principe de Phonétique expérimentale.
50. Roustan : Psychologie.
51. Sapir (E) : Language (New-York).
52. Saussure (De) Cours de Linguistique Général.
53. Sayce : Introduction to the Science of Language 2 vols.
54. Sayce : Principles of Comparative Philology.
55. Sechehaye : Programme et Méthode de la Linguistique théorique.
56. Sweet : The Practical Study of Language.

57. Taine : Observations sur l'Acquisition du Langage.
58. Tarde : Lois de l'Imitation.
59. Tylor : Early Hisotry of Man — kind.
60. Tylor : Origin of Civilisation.
61. Vannier : l'Esprit et les Moeurs d'une nation d'après sa Langue.
62. Vendryès : Le Langage.
63. Vendryès : Reflexion sur les lois phonétiques.
64. Whitney : Language and the Study of Language.
65. Wright : Lectures on the comparative grammar of of the Semitic Langage.

من مؤلفات الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

كتب باللغات الأجنبية :

١ — نظرية اجتماعية فى الرق .

٢ — الفرق بين رق الرجل ورق المرأة .

طبعا باللغة الفرنسية بباريس سنة ١٩٣١ وحصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة باريس .

كتب باللغة العربية :

٣ — علم اللغة (الطبعة التاسعة ، مزيدة ومنقحة) .

٤ — فقه اللغة (الطبعة التاسعة ، مزيدة ومنقحة) .

٥ — نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة) .

٦ — اللغة والمجتمع (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .

٧ — علم الاجتماع (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٨ — الأسرة والمجتمع (الطبعة السابعة ، مزيدة ومنقحة) .

٩ — المسئولية والجزاء (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .

١٠ — قصة الملكية فى العالم (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

١١ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم .

١٢ — مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى وعلاجها فى ضوء العلم والدين .

١٣ ، ١٤ — غرائب النظم والتقاليد والعادات (جزءان) .

١٥ — المجتمع العربى .

١٦ — الهنود الحمر (سلسلة اقرأ عدد ٨٨ ، الطبعة الثانية) .

١٧ — الطوطمية (سلسلة اقرأ عدد ١٩٤) .

١٨ — الأدب اليونانى القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعى (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

١٩ — ابن خلدون منشىء علم الاجتماع .

٢٠ — عبد الرحمن بن خلدون : حياته وآثاره ومظاهر عبقريته (ظهر فى سلسلة «أعلام العرب» التى تصدرها وزارة الثقافة) .

٢١ — عبقريات ابن خـــلدون .

٢٢ — ٢٤ — «مقدمة ابن خلدون» مع تمهيد وتكملة وتحقيق وشرح وتعليق (ثلاثة أجزاء ، بها نحو ثلاثة آلاف تعليق ،وفهرس تحليلى وفهرس أبجدى ، وتمهيد فى نحو ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير وظهر فيها الفصول والفقرات التى كانت ساقطة من طبعاتها المتداولة وتبلغ حوالى مائة صفحة — الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .

٢٥ — فصول من «آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى» مع مقدمة وتحقيق وشرح وتعليق .

٢٦ — «المدينة الفاضلة» للفارابى مع مقدمة وتحقيق وشرح وتعليق . (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٢٧ — الاقتصاد السياسى (الطبعة السادسة ، مزيدة ومنقحة) .

٢٨ — البطالة ووسائل علاجها والتعليم الإقليمى وأثره فى علاج البطالة (نال جائزة المباراة الأدبية سنة ١٩٣٥) .

٢٩ — عوامل التربية ، بحوث فى علم الاجتماع التربوى والأخلاقى (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٣٠ — فى التربية (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٣١ — أصول التربية ونظام التعليم (مع آخرين) .

٣٢ — الوراثة والبيئة (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٣٣ — اللعب والعمل .

٣٤ — مواد الدراسة .

٣٥ — حقوق الإنسان فى الإسلام (الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة)

٣٦ — المساواة فى الإسلام (سلسلة «اقرأ» عدد ٢٣٥ الطبعة العاشرة ، مزيدة ومنقحة) .

٣٧ — الحرية فى الإسلام (سلسلة «اقرأ» عدد ٣٠٤ ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٣٨ — بيت الطاعة والطلاق وتعدد الزوجات فى الإسلام (ظهر فى السلسلة التى تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة بعنوان «مع الإسلام») .

٣٩ — الصوم والأضحية فى الإسلام والشرائع السابقة (ظهر فى السلسلة التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعنوان «دراسات فى الإسلام») .

٤٠ — حماية الإسلام للأنفس والأغراض .

٤١ — المرأة فى الإسلام .

٤٢ — الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ، الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .

٤٣ — اليهودية واليهود . (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

٤٤ — بحوث فى الإسلام والاجتماع .

بحوث باللغات الأجنبية طبعت على حدة :

١ — نظرية جديدة فى وأد البنات عند العرب فى الجاهلية (نشر باللغة الفرنسية فى مطبوعات المجمع الدولى لعلم الاجتماع) .

٢ — حقوق الإنسان فى الإسلام (قدم باللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى مؤتمر اليونسكو الخاص بدراسة حقوق الإنسان المنعقد فى أكسفورد سنة ١٩٦٥ ونشر فى مطبوعاته بهاتين اللغتين) .

بحوث باللغة العربية طبعت على حدة وفصول من كتب :

٣ — رغبات المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات ، طبعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٦) .

٤ — تعليمات تربوية لمدرسى المدارس المتوسطة والثانوية العراقية (طبعته وزارة المعارف العراقية سنة ١٩٣٧) .

٥ — ميادين الخدمة الاجتماعية ، شغل أوقات الفراغ (ألقى فى مؤتمر الإصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤٠ ، وقامت بطبعه «رابطة الإصلاح الاجتماعى») .

٦ — الحرية والأخاء والمساواة فى الإسلام (ألقى فى مؤتمر الإصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤١ وقامت بطبعه على حدة «جماعة التعريف الدولى بالإسلام») .

٧ — الصوم (فصلة من مجلة كلية الآداب عدد مايو ١٩٥٠) .

٨ — النظم الدينية عند قدماء اليونان .

٩ — أقدم البحوث الاجتماعية عند قدماء اليونان .

١٠ — الشعر الحماسى عند قدماء اليونان .

١١ — النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان .

١٢ — الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجيست كونت .

ظهرت هذه البحوث الخمسة الأخيرة مطبوعاً كل منها فى فصلة على حدة فى مؤلفات «الجمعية المصرية لعلم الاجتماع» سنتى ١٩٥١ ، ١٩٥٢) .

١٣ — حقوق كل من الزوجين وواجباته فى الأسرة المصرية (ألقى فى مؤتمر لرابطة الإصلاح الاجتماعى ونشرته لجنة المؤتمرات والندوات بالرابطة فى يناير سنة ١٩٥٦) .

١٤ — الاختلاط بين الجنسين (ألقى فى مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعى ونشرته لجنة الندوات بالرابطة فى مارس سنة ١٩٥٦) .

١٥ — تطور البيت العربى وأثر المدينة الحديثة فيه (من مطبوعات إدارة الشئون الاجتماعية بجامعة الدول العربية) .

١٦ — نظام الأسرة فى الإسلام (فصل من كتاب «الإسلام اليوم وغداً» نشرته مكتبة عيسى الحلبى سنة ١٩٥٧) .

١٧ — مشكلة مصر هى قلة النسل لاكثرته (من مطبوعات إدارة الثقافة بوزارة الأوقاف سنة ١٩٥٨) .

١٨ — كيف يتكلم الطفل (كتاب الشهر من مجلة «حياتك» عدد أكتوبر سنة ١٩٥٨) .

١٩ — المدرسة المصرية (كتاب الشهر من مجلة «حياتك» عدد ديسمبر سنة ١٩٥٨) .

٢٠ — ألعاب الطفل (كتاب الشهر من مجلة «حياتك» عدد فبراير سنة ١٩٥٩) .

٢١ — الوراثة والبيئة (كتاب الشهر من مجلة «حياتك» عدد أبريل سنة ١٩٥٩) .

٢٢ — وظائف الأسرة (كتاب الشهر من مجلة «حياتك» عدد سبتمبر سنة ١٩٥٩) .

٢٣ — الإسلام فى المجتمع العربى (محاضرة عامة ألقيت فى قاعة محمد عبده فى مايو ١٩٥٦ وقامت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر بطبعها على حدة سنة ١٩٥٦) .

٢٤ — الرد على الشيوعيين العراقيين فى افترائهم على الإسلام فى كراستهم الرمادية «الكتاب رقم ٣٢ من كتب قومية صدر فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ .

٢٥ — علم اللغة (فصل من «السجل الثقافى» لسنة ١٩٦٠ ، تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .

٢٦ — علم الاجتماع (فصل من «السجل الثقافى» لسنة ١٩٦١ ، تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .

٢٧ — علم الاجتماع (فصل من «السجل الثقافى» لسنة ١٩٦٢ تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .

٢٨ — ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع (ألقى فى مهرجان ابن خلدون المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٦٢ . ونشره مع بقية بحوث المهرجان فى كتاب خاص «المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية» بعنوان «أعمال مهرجان ابن خلدون») .

٢٩ — مقدمة ابن خلدون (فصل من العدد الرابع من المجلد الأول من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان «تراث الإنسانية» أبريل سنة ١٩٦٣) .

٣٠ — آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى (فصل من العدد السابع من المجلد الثانى من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان «تراث الإنسانية» يولية ١٩٦٤) .

٣١ — الحرية المدنية فى الإسلام (ألقى فى الموسم الثقافى لجامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٧ وطبعته الجامعة فى فصلة على حدة) .

٣٢ — القرآن وحرية الفكر (ألقى فى مؤتمر أسبوع القرآن الذى عقدته جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م ، وقامت الجامعة بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر ، وعمل فصلة منه على حدة) .

٣٣ — التراث العربى وأثره فى علم الاجتماع (ألقى فى الحلقة التى عقدتها جمعية الأدباء بالقاهرة سنة ١٩٦٨ . وقامت الجمعية بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر فى كتاب بعنوان «التراث العربى ، دراسات»

٣٤ — التلازم بين إنتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية . بحث أرسل فى أواخر سنة ١٩٦٨ إلى «المكتب الدائم لتنسيق التعريب» الملحق بجامعة الدول العربية ، ينطوى على إجابات على أسئلة وجهها المكتب إلى صاحب البحث .

٣٥ — الوراثة وقوانينها وآثارها فى الفرد والأسرة والمجتمع (فصلة من العدد الثانى من مجلة جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م) .

٣٦ ، ٣٧ — التعليم الإقليمى وأثره فى علاج البطالة ؛ البطالة بين طبقة المشتغلين بالزراعة : أسبابها ووسائل علاجها (بحثان ألقيا فى المؤتمر الذى عقدته جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٩ لدراسة مشكلة البطالة فى السودان ، وطبعا مع بقية أعمال المؤتمر) .

٣٨ — الملكية الخاصة فى الإسلام (ألقى فى الموسم الثقافى سنة ١٩٦٩ لجامعة أم درمان الإسلامية وقامت الجامعة بطبعه مع بقية بحوث الموسم وعمل فصلة منه على حدة) .

٣٩ — التكامل الاقتصادى فى الإسلام (بحث قدم إلى مجمع البحوث الإسلامية ، بدعوة خاصة من المجمع ، وألقى فى مؤتمره السادس فى مارس ١٩٧١ . وقام المجمع بطبعه فى كتاب على حدة) .

٤٠ ، ٤١ — المرأة والأسرة فى الإسلام ، الحرية المدنية فى الإسلام . بحثان ألقيا فى «الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامى» المنعقد فى مدينة قسطنطينة بجمهورية الجزائر فى شهر أغسطس سنة ١٩٧٠ ، وطبعا مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان «محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامى» .

٤٢ — ٤٤ — اللغة العربية فى الوطن العربى : أهميتها وتاريخها ؛ نظام الطلاق فى الإسلام ؛ نظام الاقتصاد فى الإسلام (ثلاثة بحوث أرسلت إلى «الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامى» المنعقد فى مدينة وهران بجمهورية الجزائر من ٢٥ — ٧ — ١٩٧١ إلى

أول أغسطس ١٩٧١ ، وطبعت مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان «محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامى») .

٤٥ — موقف الإسلام من الأديان الأخرى والرد على ما يفتريه بعض مؤرخى الفرنجة وبعض المستشرقين على الإسلام فى هذا الصدد (بحث ألقى فى «الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامى» المنعقد فى مدينة الجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية من ٢٠ — ٧ — ٧٢ إلى ١١ — ٨ — ٧٢ ، وطبع فى الجزء الثانى . صفحات ٣٩٣ — ٤٢٨ مع بقية بحوث المؤتمر فى كتاب من خمسة أجزاء) .

٤٦ — واقع التشريع اليوم فى العالم العربى ومدى انحرافه عن روح الشريعة الإسلامية ونصوصها وعن تقاليدنا وعرفنا الخلقى . بحث أرسل إلى «الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامى» المنعقد فى مدينة «تيزى أوزو» بالجمهورية الجزائرية من ١٠ إلى ٧٣/٧/٢٠ .

٤٧ — أثر تطبيق النظام الاقتصادى الإسلامى فى المجتمع . من بحوث «مؤتمر الفقه الإسلامى» المنعقد فى الرياض سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) وطبع مع بقية بحوث المؤتمر .

٤٨ — معجم العلوم الاجتماعية : أصدرته «الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) » . وقد حرر الدكتور على عبد الواحد وافى ٣٤ أربعة وثلاثين مصطلحاً من مصطلحات علم الاجتماع فى هذا المعجم . وراجع جميع مصطلحات علم الاجتماع

التى حررها غيره وتبلغ حوالى ٣٧٠ ثلثمائة وسبعين مصطلحاً ، وأحال المحررون على مؤلفاته فى نحو ١٤٥ مائة وخمسة وأربعين مصطلحاً .

٤٩ — الصيام فى الإسلام والشرائع السابقة (محاضرة من محاضرات «الدروس الحسنية الرمضانية» لسنة ١٣٩٤ هـ . وهى المحاضرات التى جرت عادة جلالة الملك الحسن الثانى ملك المغرب أن يدعو لإلقائها فى شهر رمضان عدداً من العلماء من المغرب ومن البلاد العربية والإسلامية . وتلقى هذه المحاضرات فى القصر الملكى أمام جلالة الملك نفسه ، ويدعى لسماعها كبار رجال الدولة والجيش والقضاء وأعضاء البعثات الدبلوماسية فى المغرب وعدد كبير من الفقهاء والعلماء وسراة القوم من المغاربة وغيرهم . وقد قامت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى المغرب بطبع محاضرات هذا الموسم فى مجلد واحد ، وتشغل هذه المحاضرة صفحات ٢٦٧ — ٢٨١ من هذا المجلد).

٥٠ — سماحة الإسلام فى مناهج الدعوة إلى الله . بحث نشر فى مجلة «المعهد العالى للدعوة الإسلامية» بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٨ هـ ١٩٦٨ م ، وقام المعهد بعمل فصلة منه على حدة .

٥١ — نداء المخاطبين فى القرآن ، أسراره وبلاغته . بحث نشر فى مجلة «كلية اللغة العربية» بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عدد ١٣٩٨ هـ ، وقامت الكلية بعمل فصلة منه على حدة .

٥٢ — لايطل دم فى الإسلام . بحث نشر فى مجلة «كلية الشريعة» بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عدد ١٣٩٨ هـ ، وقامت الكلية بعمل فصلة منه على حدة .

فهرس الكتاب